الهيئة العامة للكتاب
سلسلة الجوائز

ماري نيمييه

ملكة الصمت

مَلِكَةُ الصَّمْتِ

الرواية الحائزة على جائزة «ميديسيس»

عام ٢٠٠٤

مَلِكَةُ الصَّمْتِ

ماري نيميه

ترجمة

رانيا عادل

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٥

• الكتاب : ملكة الصمت Le reine du silence.

• الكاتبة : ماري نيمييه Marie Nimier.

• المترجمة : رانيا عادل

• المراجعة : د. هدى وصفى

• يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من دار النشر الفرنسية جاليمار Galliard ويطبع منه أربعة آلاف نسخة.

• جميع الحقوق محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب فى مصر ولدار جاليمار للنشر في فرنسا والعالم.

© Éditions Gallimard,2004.

• الطبعة الأولى ٢٠٠٥.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٤٣٧ / ٢٠٠٥

I.S.B.N. 977 - 419 - 006 - 8

• طبع في مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

• الغلاف والإشراف الفنى : صبرى عبد الواحد.

سلسلة الجوائز

سلسلة تعنى بتقديم مؤلفات الكُتاب الحائزين على جوائز دولية أو عربية أو مصرية أو محلية فى دِولهم.

والهدف من هذه السلسلة هو أن نقدم للقارئ الأعمال الأدبية التى حصلت على جوائز عالمية أو محلية، أو حصل أصحابها على هذه الجوائز، عن مجمل إنتاجهم وذلك بغرض الاطلاع على أحدث الاتجاهات فى الكتابة الأدبية ذات القيمة الكبيرة. وتتنوع السلسلة من جائزة نوبل إلى الجوائز العربية المختلفة إلى جوائز الدولة ، مبارك والتقديرية، والتفوق، والتشجيعية.

وتضم المجموعة الأولى من هذه السلسلة والتى حصلت الهيئة المصرية العامة للكتاب على حقوقها طبقاً للقانون :

- موال البيات والنوم للكاتب «خيرى شلبى» الحائز على جائزة الدولة التقديرية.
- أوقات رائعة للكاتبة النمساوية «الفريدا يلنيك» الحائزة على جائزة نوبل.
- قبلة الحياة للكاتب «فؤاد قنديل» الحائز على جائزة الدولة للتفوق.
- ملكة الصمت للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» والكتاب حائز على جائزة ميديسيس الفرنسية.
- أوائل زيارات الدهشة للشاعر «محمد عفيفى مطر» الحائز على جائزة «سلطان العويس» الإماراتية.
- فتاة من شارتر للكاتب الفرنسى «بيير بيچى» والكتاب حائز على جائزة انتر الفرنسية.
- اللمس للكاتبة السعودية «ملحة عبد الله» الحائزة على جائزة «أبها» السعودية.
- الآخر مثلى للكاتب البرتغالى «ساراماجو» الحائز على جائزة نوبل.
- عاشوا فى حياتى للكاتب «أنيس منصور» الحائز على جائزة مبارك.
- رجل بطئ للكاتب «ج.م. كويتزى» من جنوب افريقيا الحائز علي جائزة نوبل
- نوة الكرم للكاتبة «نجوى شعبان» والرواية حائزة على جائزة الدولة التشجعية.

● ليلة الحنة للكاتبة «فتحية العسال» الحائزة علي جائزة الدولة للتفوق.

والكتاب الذى نقدمه هنا هو رواية «ملكة الصمت» حصلت الهيئة المصرية العامة للكتاب على حق ترجمتها إلى اللغة العربية ونشرها وطبعها باتفاق خاص مع الناشر الفرنسى جاليمار Gallimard.

وجائزة ميديسيس التى حصل عليها هذا الكتاب فى عام ٢٠٠٤ تعد من الجوائز الأدبية الكبرى فى الحياة الثقافية الفرنسية وقد أنشأها كل من «جالا باربيسان» و«جون جيرودو» ومنحت للمرة الأولى عام ١٩٥٨، واستمرت تُمنح بانتظام منذ هذا التاريخ حتى اليوم. والهدف منها منح جائزة لعمل أدبى: رواية أو قصة أو مجموعة قصص قصيرة لكاتب متميز فى بداية مشواره الفنى ولم ينل بعد مايستحق من شهرة. أو أن تمنح لكاتب شاب يشير أسلوبه المبتكر إلى تحقيق مكانة بارزة فى الكتابة والتأليف.

وها نحن نقدم هذا الكتاب إلى القارئ العربى ليزداد معرفة واطلاعاً على الحركة الأدبية فى الغرب من خلال الأعمال الفائزة بالجوائز الأدبية الكبرى.

د.ناصرالأنصارى

ملكة الصمت

لقى والدى حتفه مساء يوم جمعة، كان يبلغ من العمر ستة وثلاثين عامًا. ارتطمت سيارته الأستون مارتان دب٤ بحاجز كوبرى كان يعلو مفترق الطريقين رقمى ٣٠٧ و٣١١، على بعد بضعة كيلومترات من باريس. كانت السيارة تلزم الجهة اليسرى وإذا بها تنعطف يمينًا فى محاولة للتوقف دون أن يكون هناك ما يبرر هذا الانحراف المفاجئ فى القيادة. اقتلعت السيارة سبعةً من الحواجز الخرسانية قبل أن تثبت. كانت السيدة الشابة التى تجلس إلى جواره، وهى روائية ذات اسم غير مألوف، قد وقّعت لتوها عقدًا مع دار النشر «جاليمار» خاصًا بالتوزيع الإعلامى لأولى كتبها. كانت سانسياريه دو لاركون تبلغ من العمر سبعة وعشرين عامًا وتتمتع بجمال قلما تجد مثيله.

ليس هناك ما يمكن أن يُقص أو يُقال حول هذه العلاقة، أليس كذلك؟ فلم أكن آنذاك فى السيارة. كان عمرى يناهز الخامسة ولم أكن قد رأيت والدى لعدة أشهر، نظرًا لأنه لم يكن يقطن بالمنزل. ذهبت بعض جرائد تلك الحقبة إلى الافتراض بأنه لم يكن هو الذى يقود «الأستون مارتان»، بل هى. تُرى أين دُفنت؟ بلا شك

فى البلدة التى ولدت بها، «رمبارفيليه». كان لديها ابن، إلا أننى لا أتذكر اسمه بينما أخط هذه الأسطر. حدث والتقينا منذ قرابة عشرين عامًا بواسطة صديقة مشتركة. كان قد اقتحم آنذاك مجال الإنتاج الموسيقى بينما كنت أغنى فى فريق «ليزانكونسولابل». لو كنتُ ممن يعتقدون فى المصادفة، لقلتُ رب صدفة خير من ألف ميعاد، ولتخيلتُ قصة تلك: العلاقة بين أبناء هذين الشخصين اللذين لقيا مصرعهما معًا. اللقاء الأول.. أنا وهو فى مقهى «بورت دورليان».. حركة يده للإشارة إلى شقرة والدته.. وارتجاف شفتى. يتميز ابن سانسياريه بشعره الطويل وتغلب عليه الرزانة الهادئة، رزانة الأطفال الذين نضجوا مبكرًا. كلانا فى نفس المرحلة العمرية، ورغم كوننا شبابًا بل قل فى منتهى الشباب -وهو ما لا ندركه بعد- نشعر و كأننا أشخاص مسنُّون. نجلس فى مؤخرة المقهى، بعيدًا عن عيون الآخرين. تحيط بنا مرايا كبيرة، إضاءة خافتة ومقاعد مغطاة بقماش شبيه بالجلد. ما عليكِ إلا تخيل المشهد، السيناريو. إذا كنتِ ترغبين فى كتابة كتب تحقق مبيعات عالية، فعليكِ أن تكتبى ذلك بكل ما أوتيتِ من خبث ورقة على السواء. فهو موضوع ذهبى. ولا تنسَ الغلاف الاستثنائى، حيث سيسارع الناشرون بعرض صور «الأستون مارتان» المهشمة. لِمَ لا، فمنذ عشرين عاماً لم أكتب هذا الكتاب، ولن أكتبه. أو قل إذا كتبته، لبدأته بطريقة أخرى.

قلت: أنا ابنة طفل حزين، أو للالتزام بالعنوان المترجم إلى اللغة الإنجليزية : طفل وليد الظروف. كان والدى كاتبًا، فهو صاحب رواية «فارس الخيّالة الأزرق»

التى جعلته مشهورًا فى سن الخامسة و العشرين. وبالنسبة لمن لم يسمعوا عنه قط، لقمتُ بنقل مقدمة الرواية التى نُشرت فى سلسلة الجيب بعد أن أضُيف ها بعض التعديلات على طريقتى. قُدر سلفًا لحياة «روجيه نيميه» (١٩٢٥-١٩٦٢) ولمجموعة أعماله الإضمار والإيجاز: من أصل بريطانى، وُلد «روجيه نيميه» فى باريس وعاش بها، تفوق دراسيًا، تطوع فى عام ١٩٤٤ فى الفيلق الثانى للخيّالة، اتجه إلى الأدب ثم توفى فى حادث سيارة. ويبدو أن الطابع السريع لهذا القدر الخاطف دفع أحد أكثر الكُتّاب موهبةً بين أبناء جيله إلى نشر سلسلة روايات حملت هى أيضًا نفس هذه السمة المتغطرسة. ملكى مثل «الكونت أرتانيان»، ذو ثقافة متسعة، تبنى روجيه اتجاهًا معاكسًا لما اعتبره الفكر الجاهز لعصره، هذا الفكر اليسارى الذى قاومه من أُطلق عليهم بعد ذلك الخيّالة وهى مجموعة خيالية جمعت حول «روجيه نيميه» كُتّابًا آخرين مثل «أنتوان بلوندان»، «جاك لوران» أو «ميشيل ديون». كان الخيّال -والكلام ليس لى- «عسكريًا من النوع الحالم الذى يأخذ الحياة بالرقة والنساء. بالعنف».

أو أيضًا: «صبى بسيارة».

لا تراودنى عنه سوى بضع ذكريات وهى ذكريات قليلة فى حقيقة الأمر. ألجأ إلى أصدقائه.. إلى ما قالوه.. إلى ما نشروه وإلى الشائعات التى روجوا لها. يا لها من طريقة غريبة لرؤية والدى، لمقابلته. يتم وصفه بالتناوب، وأحيانًا فى آن واحد على أنه مخلوق وقح، جاد، كاذب، وفى، بطىء، سريع، مجد، كسول، بذىء، وطنى، قاسٍ،

حنون، غير مبال، متقد المشاعر، رزين، سطحى، ملتزم، سخى، وأخيرًا غير حاذق فى التحكم بمشاعره مثلما يكون الإنسان غير ماهر فى استعمال يديه. ولأضفتُ أنه كان أيضًا صحفيًا، رئيس تحرير، سيناريست، وحتى وفاته المستشار الأدبى لدار جاليمار، وهو الأمر الذى جعله يتعرف على سانسياريه دو لاركون، الشهيرة بسوزى دوروبت، كاتبة حاملة الرسالة ولبضع روايات أخرى لم تُنشر. ولقلتُ أيضًا أنه رُزق بثلاثة أبناء : تُوفى البكر جييوم عقب ولادته -وهو ما له تأثيره على بقية السرد- ولتحدثتُ عن مارتان الذى يكبرنى بثمانية عشر شهرًا وعن هوج وهو أخ غير شقيق من زواج والدتى الأول. ولخاطرتُ بقص هذه النوادر التى تطعَم الأسطورة الأبوية، سواء كانت نوادر معروفة أو غير معروفة. ولأطلقتُ لنفسى العنان بعض الشىء إلى حد الحصول فى مراسلاته الخاصة على بعض المغامرات المحملة بالمعانى والتى تلقى ضوءًا جديدًا على شخصه. ثم لألقيت بذلك كله فى سلة المهملات.

أو سأبدأ بزيارة مقابر سان بريوك، الزيارة الأولى التى قمت بها منذ ثلاثة أعوام. سأكتب أن الكثير من الأحجار والأشجار تستقبلك يليها العديد من القبور المتراصة وكأنها أسرة صغيرة فى عنبر مكشوف. فى أول الأمر، نقول لأنفسنا- وهو بالفعل ما جاش بخاطرى عند الوصول إلى المقابر-: إنهم بالفعل هناك ، مع البحر، فى مستوى أدنى. إنه بالفعل هناك.

استقلال القطار والسير تحت المطر، هذه هى القاعدة. ففى كل مرة ذهبت فيها إلى قبر والدى، كانت

تمطر. لن أقوم باستنتاجات عن مناخ فرنسا بصورة عامة ومناخ بريتانى بصفة خاصة، ولا عن التوافق الغريب بين حالتى الداخلية و نزوات الطقس. أشترى دومًا الزهور من البائعة ذاتها المواجهة للمقابر، امرأة أنيقة تغلف الورود بنفس الحب الذى قد تغلف به هدية عيد العشاق. امرأة تدرك أن هذا التغليف سيكون مصيره فى غضون عدة دقائق سلة مهملات الممر الرئيسى، ليس فقط ورق التغليف بل وأيضًا العقدة المزينة له، وكذا البطاقة الصغيرة الذهبية الملصقة على الشريط الذى يطلق عليه Bolduc. نعم، لقد تحققت من اسمه، Bolduc (كان الشك يساورنى بخصوص هذه الكلمة) وهو مشتق من Bois-le-Duc ، مدينة فى «برابان سبتونتريونال». ما عليك إلا أن تثبت الشريط بين حد السكين وباطن إبهامك وتجذبه لأعلى. كلما كانت الحركة سريعة، كلما كان التواء الشريط مرتخيًا، وعلى العكس فهو ملتف ومشدود عندما تكون الحركة بطيئة. تدرك بائعة الزهور ذلك جيدًا، تدرك أنه سرعان ما سينتهى فى سلة المهملات بناؤها الجميل، تمامًا مثلما تنتهى زخارف صانعى الحلوى، المشكلة من عجينة اللوز على تورتة جذع عيد الميلاد، فى المعدة مختلطةً بالحشوات والمحار وخبز الثوم. إلا أنها لا تبالى بذلك، إنها تحب العمل المتقن ولا يشغلها سوى هذا: جمال الحركة وسعادة اللحظة. ومهما حاولت عبثًا أن تلوح لها بيديك كى لا تكلفها عناء هذا المجهود (وكأنك تقول لها إنه للمقابر المواجهة لنا، كما تعلمين، فهل هناك حاجة لكل هذه المشقة؟) فإنها لن تسمعك، لن تنظر إليك وستستمر

فى تمرير سلاح مقصها على الشريط الذهبى حتى يتحول إلى جدائل ملتفة على ورق السلوفان. ومثلما كانت، كان محلها: الزهور الصناعية، الشواهد المحفورة، التيجان الجنائزية..نعم، كل ذلك كان مرتباً بطريقة توحى بالبهجة، علاوة على الملائكة المصنعة من الفخار والتى ترفرف على عدة مستويات، الشموع المعطرة والمذياع الذى ينشر أحدث الأخبار: وقعت حادثة مروعة فى هذا اليوم الأول من العطلة الأسبوعية، الإجراءات الجذرية هى وحدها القادرة على الحد من الوفيات.

فى طفولتنا، لم يعرض علينا أحد قط زيارة قبر والدنا رغم قضائنا إجازة الصيف فى المنطقة، كنا نستقل القطار حتى محطة سان بريوك ثم نأخذ الحافلة إلى سان كيه بورتريوه. أتساءل إن كان شقيقى مارتان يعرف القبر، فأنا شخصيًا لم تواتنى شجاعة زيارته إلا مؤخرًا وبطريقة شبه سرية كأنه جرم يستحق العقاب. كم أود أن أعود يومًا ما إلى «سان بريوك» مع «مارتان». عبارات كهذه تجعل الدموع تترقرق فى العين وتفيض منها: فى يوم من الأيام، سأذهب لأضع الزهور على القبر مع شقيقى، لا، يجب كتابتها بشكل آخر، فى يوم من الأيام، فصلة، سأذهب مع مارتان إلى قبر والدنا، قبر روجيه نيميه. فى يوم من الأيام، فاصلة، سأذهب أنا وشقيقى، فى يوم من الأيام، فاصلة، ولكن عندما أترك له رسائل على جهاز الرد الآلى للهاتف، فإنه لا يطلبنى أبدًا. لم أشعر بالإهانة بقدر ما ساورنى الإحساس بإزعاجه من كثرة تكرار ذلك. ومن ثم،

فلم أعد أزعجه واحتفظت بذلك لنفسى: زيارات المقابر التى تشرف على البحر، الأشجار، الأسرة الصغيرة والذكريات المؤلمة عن بابا.

فى المرة الأولى، أعارنى حارس المقابر جاروفاً ومكنسة لتنظيف المكان. كم يفتخر هذا الرجل بمهنته ويؤديها بجدارة ملحوظة، شأنه شأن بائعة الزهور وكأن بينهما اتفاقاً. فمنه علمت أنه لم يقم تقريبًا أى شخص بزيارة هذا القبر لعدة سنوات. كان هناك بالتأكيد فريقاً تليفزيونياً جاء قبل ذلك بسبع أو ثمان سنوات، فى شهر أكتوبر، إلا أنه لم يقم سوى برصد حالة المكان - ونستطيع القول إنه ابتهج بهذا القفر بل ووجد فيه لذة جمالية.

لذة فاسدة على حد قول الحارس.

تُرى ماذا كانوا يريدون إثباته؟ لقد بدءوا بتصوير المكان على ما كان عليه، دون أدنى محاولة لإقصاء الأوراق الميتة. وقاموا بإجراء حوار مع رجل ذى هيبة، رمادى الشعر، أمام الصليب. كان الحارس قد اقترح عليهم استعارة بضع زهريات من قبر لويس جييو الذى كان يتم الاحتفال بذكراه أو من عند والد كامو الذى يرقد ليس ببعيد عن هنا. إلا أن المخرج رفض ذلك، بل ويبدو أنه سخر بعض الشىء من الحارس معتقدًا أنه يبذل جهدًا للتقريب بين الأدباء من أجل الحصول فقط على حفنة قروش. ومن ثم، تم إعطاؤه ورقة مالية جديدة لم تستخدم من قبل وطُلب منه بلطف الابتعاد عن مكان التصوير. الأمر الذى صدمه دون أن يهينه، فلم يجعل منه مسألة شخصية. إنه فقط لم ير من العدل عرض هذه المقابر

المنظمة للغاية فى التليفزيون من خلال هذا القبر. لم يكن له سلطة منع التصوير، ولكن بما أن السماء أخذت تمطر ولجأ فريق التصوير إلى أحد المقاهى، انتهز الحارس هذه الفرصة لتنظيم القبر بدءًا من إزالة بعض الأعشاب، مرورًا بالكنس، الحفر، تنسيق الزهور، ووصولاً إلى ترتيب وضع الغصن الحديدى الذى يزين الشاهد. حتى أن الصحفى الذى عاد بعد ساعة لإتمام الحوار استشاط غضبًا، بلا جدوى لأنه إذا كان فى الإمكان تنظيف مقبرة فى ساعة، فإن إهمالها يتطلب ساعات. وجد الفريق نفسه مضطرًا إلى إعادة جميع اللقطات منذ البداية: الدخول واجتياز الممر الرئيسى، قراءة الأسماء المحفورة والمونولوج المستوحى من شاهد الساعة الأخيرة.

تُرى من كان هذا الرجل الرمادى الشعر؟ كاتب بلا شك. وفقاً لما قاله الحارس، لقد شاهد هذا الرجل والدى يوم وفاته. يجدر على إيجاد هذا البرنامج التليفزيونى، ربما تحتفظ المدينة بنسخة منه فى دار الوثائق أو فى المكتبة. أود أن أعرف إن كان هذا الرجل على علم بالمقابلة المتأخرة التى كانت فى روجيه لاجرونوى مساء يوم الحادث، حيث كان على والدى اللحاق بأصدقائه قبل منتصف الليل. روجيه لاجرونوى! يا له من اسم غريب لمطعم باريسى، لايزال هذا المكان موجودًا حتى الآن. من النوادر التى تقص حول مؤسسه أنه كان يقدم لزبائنه من السيدات ضفدع تذكار مقابل قبلة، قبلة أخوية على الخد سرعان ما تتحول إلى قبلة على الفم عندما يدير رأسه. كان روجيه لاجرونوى يتيمًا، وكان يدعو كل يوم خميس قرابة عشرين طفلاً لتناول الغذاء. يا له من مكان فريد.

كم أود أن تواتنى شجاعة زيارته ودعوة ابن الروائية الشابة المولودة برمبارفيليه. ابن سانسياريه. لا يزال أمامى أن أتذكر اسمه، أن أجد عائلته. أين تقع رمبارفيليه؟ لا أجرؤ أن أقول ما وجدته على الإنترنت عن رمبارفيليه. ليس الآن. تعرفين جيدًا أين هى رمبارفيليه، فى منطقة ليفوزج، لديكِ حتى مواعيد الحافلات وتحتفظين فى ألبوم الكومبيوتر بصور الحفلة المحلية. " رمبارفيليه، مدينة رءوس العجول". هذا هو ماظهر عندما أطلقت محرك البحث: ملف كامل عن عرض جمعية بائعى لحم الخنزير، حيث تجول رءوس العجول مثل غنائم الحرب على عربات احتفال مزينة بفخامة. يا لسانسياريه المسكينة! جميلاً كان اسمها المستعار، بديعاً كان شعرها المشابه لشعر الأميرات، وحالماً كان موتها إلى حد كبير. ولكنى أبغض فكرة الموت الحالم. لا، ليس هناك شيئًا بطولى فى هذه السيارة المهشمة، لا شىء سوى الدماء، بقايا الحديد، الصفارات، الإسعاف..وعودة إلى رمبارفيليه، الجزارة، محلات بيع لحم الخنزير، رائحة الرءوس المتبلة بالطماطم فى الأنف، الجزر المزين على هيئة حلقات شبيهة بالياقات حول الرءوس، كل ذلك من أجل العمل الجميل، من أجل الأجيال القادمة. حائر هو عقلى. يجب ألا أفكر فى جسد والدى المشتت. تتراءى لى الحادثة بالتصوير البطىء. يمكننى من خلال قائمة الطعام وصف جميع الأشكال الممكنة للكارثة، ومن هذا أيضًا يمكننى كتابة رواية أو كتاب حول الحادث أسترجع فيه من آن إلى آخر نقطة البداية، كما فى الكوابيس التى تسبح فيها ضد التيار بينما تكون قدماك مقيدتين فى

الجـرف برباط مطاط. مـا لم يقله، مـا قـالتـه، رائحـة السيـارة وصـوت المحـرك، لعبـة الأجسـاد وتخيـلات الروح، هذا الومـيض المفـاجئ، الخـوف، الصـرخـات ثم الصـمت الكبيـر الذى تلى ذلك. وقـد اسـتـدعى الكلمـات الأخيـرة لأرتانيان والمذكورة فى الروايـة التى كان والدى مـا لبث أن انتهى منهـا عندمـا قـابل سـانسيـاريه: " الطرق هى وحدهـا القـادرة على تهدئة الحيـاة" . من باستطاعته أن يعـرف مـا حـدث فى الأسـتـون مـارتان؟ ولانتـفـاء اليـقـين (أى أن فى الجهل أحـيـاناً مـيـزة مـقـدسـة) فلن أقص ذلك مطلقـاً، لن أتخيـله، بل سـأرفض أن أتخـيله وسـأكـرر وأنـا مـغـمـضـة العينين مثل الأطفـال الذين يودون الاختفـاء: ليس هذا من شأنى.

فى هذا العـام، ذهبتُ إلى القبـر فـى عيـد القـديسـين، حصل الحارس على أحذية جديدة، بينمـا اسـتعـانت بائعة الزهور بمسـاعـدتين فى مـثل إتقـانهـا تمامًـا، ولكنهـمـا أقل منها مهارةً فى لف الشريط وتجعيده- ربما تكونان ابنتيها أو ابنتى أخـواتهـا وقد جـاءتا فى هذا اليوم المزدحم لكسب بعض الأمـوال. شـرعتُ، أنا أيضًـا، فى العـمل فـى سن مبكـرة. كنت أقوم بدور الملاك فى عـرض باليه دى مـرفاى. كنت أضع مـاكـيـاجًـا أبيض اللون وجناحـين من الريش الحـقيقى وأمسك طبلة صـغيـرة أنقـر عليـهـا وفقـاً لإيقـاع الموسـيـقى. كنت أسـيـر حـافـية القـدمـين، فـتخـيل مـلاك مـرتديًـا حـذاء أمـر مسـتـحيل. كنـت فى الخـامسـة عـشـرة، وكنت أتناول شراباً كحولياً وأنام فـى مؤخـرة الحافلة خـلال الجـولات. لم أجـد فى أى من المقـالات التى تناولت وفـاة والدى إشـارة مـحـددة إلى نسبـة وجود الكحـول فى دمـه.

دققت النظر فى جرائد تلك الحقبة ولكن دون جدوى. يشار فقط إلى أنه مر على عدة حفلات "كوكتيل" إعلامية قبل أن يقود سيارته. يجدر البحث عن تقرير الشرطة، التماس المحكمة الابتدائية.. ولكن بأية صفة سأطالب بإعادة فتح الملف؟ إن هذا الرقم مدون فى مكان ما. يبدو أن سانسياريه قالت لأحد أصدقائها، يوم الحادث، وبالإشارة إلى والدى: "سوف أختبر أخيرًا شجاعته"، كلمات تم نقلها بعد ذلك بعشرين عامًا من قبل أندريه بيار دو مونديارج. هل يجب تصديق أندريه بياردو مونديارج؟ شجاعة والدى، هذا هو ما أرادت أن ترى. غالبًا ما تستولى هذه الجملة على فكرى فأظل أكررها فى نفسى إلى أن تفقد معناها، شحنتها السيئة، إلى أن تتلاشى من كثرة تواجدها. مما لا شك فيه أن ابن سانسياريه قد تقدم كثيرًا فى حياته منذ لقائنا فى مقهى بورت دورليان، وقتها بهرتنى طريقته فى التحدث عن المأساة. كم رغبت فى أن أتمتع بسلاسته وثقته. كان يرى والدته بعين الحنان والحماية. على كل حال، هذا هو الانطباع الذى تركه فى ذاكرتى. لم يكن يلومها بل كان يردد أنها كانت هكذا وكأن وفاتها من جراء حادث ما هو إلا جزء لا يتجزأ من حياتها. أتساءل كيف استطاع أن يتدبر هذا الأمر. هل قاوم؟ هل سيقرأ هذه الأسطر؟.

منذ بضعة أشهر، التحقت بمدرسة تعليم القيادة بالمدينة المجاورة وحصلت على الجزء النظرى دون صعوبة. أعتقد أننى سأواجه متاعب أكثر على المستوى العملى. فالدروس الأولى لم تشجعنى قط، ولكن منذ انتقالى إلى نورماندى مع فرانك والولدين أصبح تعلم القيادة اتجاهاً

إجـبـاريًا. ومن ثم، أرغم نفـسى على ذلك. لقـد قـررت الحصول على الرخصـة. أقول ذلك بكل مـا أوتيت من حزم نظرًا لأن هذا الأمـر يمـثل لى نهـاية العـالم. أشـعـر وكـأنى حـمـقـاء. نعم، تجـتـاحنى رغـبـة عـارمـة فى التـعلم ولـكنى شـديدة البـلاهة أمـام عـجلة القـيـادة. فـالتـعليـمـات التى يصـدرهـا لى المدرب بتـأنى تتـلاشى بسـرعـة كمـا يتـلاشى الماء على ريش البط. ولكن يبدو أن ذلك أمر طبيعى. ففى البـداية، يحـدث ذلك دائمـاً: تتـعلق السـرعـات بالصندوق مـثلمـا تتـشـابك الفـرشـاة البـلاستـيك بالشـعـر الشـديد الجـفــاف. نعم، أنت أيضـًـا، كنت توقف السـيــارة عند تشـغيلها، أنت أيضًا كان يجـتاحك الخوف عندمـا تفـرط سـيــارة فى اتبـاعك عن قـرب. يجب أن أركـز. يجب أن أتحـمل المسـئوليـة مـثلمـا يقـول لى مـدربى. أن أتحـمل المسئولية.

قمت لتوى بإعـادة قـراءة مـا سـبق حول زيارات المقـابر ووجدته لا يتشابه كثيرًا مع ما مررت به. صـعب هو إيجاد النبـرة، المسـافـة الحـقيـقـيـة. فـعلى سـبيل المثـال، فى المرة الأولى، كـدت أن أقتل بائعة الزهور هى وهـيئتـهـا الحـالمة والزخارف التى تصنعها. كانت تضغط بإبهامها بشدة على سلاح مقصها حتى خشيت أن يتدفق دمها. غير مـحـتملة كـانت هذه الحـركة وهـذا الصـوت أيضًـا، صـريـر الشـريط، هذا الأنين. وعلى ذلك، طلبت من السيدة الشـابة التـوقف، بل أمـرتهـا بالتوقف، سـمعتُ صـوتى يدوى دويًا شـديدًا فى المحل، نظرت إلى باندهـاش، لا، لم يكن اندهـاشاً بل فزعاً.

سارعت بالاعتذار، كنت فى شدة الحرج.

تمتمت لها بأن الزهور لهناك وأنا أشير برأسى فى اتجاه المقابر، نظرَت لأسفل وهى تكرر: نعم، إنها لهناك. قدمت لى العزاء وكأن والدى تم دفنه للتو. هل كان يجب أن أقول لها إنه توفى منذ زمن طويل؟ ابتعدتُ بينما راحت هى تتابع عملها، إنها لن تهدم كل ذلك الآن بعد أن أوشكت الباقة على الانتهاء. ركزتُ على صوت المذياع كى لا أبكى، فبكيت لتذكرى جميع من علموا بالبث المباشر خبر وفاة والدى. فى المرة الثانية ليس إلا، بدأت مثابرة بائعة الزهور فى التأثير على مثلما شرعت يقظة الحارس فى لمس عواطفى. لقد أحببت رؤية حركاته البطيئة وطريقته فى الإيماء برأسه متى انسدل شعره على عينيه. لم أجزم بعد بما سأكتبه فى الصفحات الأولى. تحدثنى نفسى أحيانًا بضرورة شطب ذلك كله، مرة أخرى، لابتدائه من جديد. سوف أقص الأحداث: واقية الريح التى تطايرت شظاياها وهذان المخلوقان الفاقدان للحياة الممددان على النقالة والمغطيان كى لا يشعرا بالبرد. كم هما جميلان، كلاهما، شاحبان للغاية، يبدوان فى الصور التى التقطت بداخل الكنيسة وكأنهما تمثالان نُحتا على هيئة آدمية كشاهدى قبر. فى المرة الأولى التى ذهبت فيها إلى المقابر ابتعت زهرة الأرطنسية البيضاء، اعتقادًا منى فى تلك المقولات. كانت الأرطنسية مزروعة فى دلو من الزنك بمقبض، دلو أبيض هو الآخر أو بالأحرى مطلى بعجينة طباشيرية تعلق بالأصابع. عندما وضعت الدلو على قبر والدى، تطاير بعض المسحوق الأبيض، إنه بلا أدنى شك الطبشور الذى شرع تحت تأثير الأمطار الشديدة فى الإذابة. لم أستطع أن أمحو من ذهنى هذه

الصورة طوال رحلة العودة. هذا الطبشور الأبيض وهو ينتشر تدريجيًا على القبر بأكمله، هذا الطبشور الأبيض المنتصر وهو يتغلغل فى مسام الأحجار ويبرز الأحرف والغصن الحديدى، هذا الطبشور وهو يتحول تدريجياً إلى اللون الرمادى كلما راحت تجف الزهور، بينما يستعيد الدلو لونه الأصلى. وفى النهاية، يفقد الدلو توازنه، يسقط من جراء تيار هواء، فيقوم شخص ما بنصبه، الحارس ربما أو هذه السيدة التى تطعم القطط. قوائم صغيرة خفيفة فوق رءوس الموتى، بصمة الحياة فى عالم بلا اسم. ثمة شخص يسترد هذا الشى الذى أصبح عديم الجدوى، ثمة شخص يتبناه، يضعه فى منزله، ثمة شخص يستفيد منه بينما أكون أنا فى القطار، أنا فى طريق العودة إلى المكتب، جالسة منتصبة أمام الكمبيوتر، أنظر إلى صور كوبرى سال سان كلو وصور مستشفى جارش وعرض بائعى لحم الخنزير فى رمبارفيليه، وكأننى أستطيع من خلال إبحارى بين هذه وتلك العثور على وجه هذا الرجل الذى ناديته، فى يوم ما، منذ زمن بعيد بابا.

فى صباح أحد أيام شهر مايو، طلبت من هوج أخى غير الشقيق أن يقص على كيف علم بوفاة زوج والدته. وفاة روجيه نيميه. لم يحدث أن تكلمنا قط، كلانا، خجلاً بلا شك، فى هذه الموضوعات شديدة الحساسية التى تزيد تآزر العائلات شأنها فى ذلك بالتأكيد شأن ميلاد طفل مرغوب فيه. لقد تقدمنا فى الحياة تاركين ذلك جانبًا، تاركين ذلك على الطريق. ذلك: جسد مقتول، منقول فى إعياء بعيدًا عن أعين الأطفال. لقد نسجنا روابط تحمينا من المأساة، حابسين إياها فى شرنقة لخنق

خفقان جناحيها قدر المستطاع. لا يزال لدى هوج، الذى يكبرنى بعشر سنوات، العديد من الأشياء التى عليه إخبارى بها، العديد من الأشياء التى لا شخص سواه بمقدوره روايتها لى. رغبتُ أن يحدثنى عن مراسم الدفن، عن الأيام والأسابيع التى تلت حادثة السيارة. اتصلت به من محطة مونبارناس، يعيش هوج فى نزل صغير بالريف بالقرب من لاروشال. رحت أتخيلنى، بعد ذلك بعدة ساعات، وأنا متواجدة تحت ظل شجرة الزيزفون حاملةً معى حقيبتى الشبكية القديمة فى محاولة لالتقاط الكلمات التى يريد أن يبيح بها دون إتلافها. ومن أجل اصطياد شهادته، أخذت معى ورقة بيضاء وأمسكت بيدى اليمنى قلمًا. استمعت له دون أن أنظر إليه- لعل الأمر أسهل على هذا النحو- تاركةً لصوته حرية الإقلاع والطيران دون إثقاله بوزن نظراتى. لبست ثوبًا من الكتان الأزرق، وكانت هذه هى المرة الأولى التى ارتديته فيها. كان ضيقاً بعض الشى ولكنى وجدت لذة فى الشعور بأنى مدعمة، محاطة بجلد نباتى يحمينى، لا من الهجمات الخارجية مثل الواقيات والدروع ولكن من الهجمات الناجمة من داخل جسدى ذاته- فلو أنى ركبت القطار دون أن أطرح على نفسى أدنى سؤال، لكان للسفر حق طمأنتى. ونظرًا لكون جميع المقاعد التى فى اتجاه سير القطار مشغولة، وجدت نفسى مضطرة للجلوس فى الاتجاه المعاكس. كنت لا أحب أن أدير ظهرى للمنظر الطبيعى حيث يولد ذلك لديك الشعور بأن الآلة تجرى وراء نفسها لتلحق بما فاتها، الشعور بأن هناك من يدفعك

فى الظهــر دون أن تكون قــادرًا مطلقــاً على التــوصل إلى...التـوصل إلى مـاذا؟ ألم يكن الوقت مـتـأخـرًا قليـلاً لاستجـواب هوج؟ كيف السبيل إلى تناول الموضوع؟ كيف أشـرح له هذه الرغـبـة المفـاجـئـة فى اسـتـقـصـاء الماضى وزعزعة - نتيجة قرار متسرع - جميع ما كان يمثل قاعدة علاقتنا على مر سنوات طوال كهذه؟ لما كل هـذا التلهف؟ هذه الحاجة الملحة فى كسـر الصمت؟ سيظن أخى أننى بالفعل فى فى حـالة يرثى لهـا وسـيـشـفق على. لم أكن لأتحمل هذه الفكرة.

نعم، فى حالة يرثى لها. كنت بالفعل فى حالة يرثى لها منذ وصولى إلى لاروشـال. راحت ركبتـاى ترتعدان. ولكن يبدو أن أخى لم يلحظ ذلك، قـال إننى أبدو متـألقـة وأنه سعيد لرؤيتى فى أفضل حـال. امتننت لسماع مجاملاته تلك. سرنا بنشاط حتى ساحة انتظار السيارات. استعدت بصورة طبيعية للغاية توافقى مع جسدى و كأن نظرة أخى الواثقة قـد أعطتـه مـعنى من جـديد. إلا أنه فـى غـمـرة اندفـاعى، ارتطمت رأسـى وأنا أدخل سيـارته. وكـانت هذه الصــدمــة بمثـابة إشـارة الانطلاق. أخـذت فـى الحـديث بصوت لا يشبهنى، بصوت ذى نبرة واضحة أكثر حدة من نبرتى المعتادة. وقبل الوصول إلى منزله، كان هوج يعلم إن لم تكن الأسباب، على الأقل دوافع زيارتى.

كان الهـواء حـارًا، حرارة مبكرة لا تنبئ بخير عن بقيـة الفـصل. قـررنا أن نجلس فى الحـديقـة. لا، لم أكن أشعـر بالظمأ ولا بالجوع. أحضر هوج كوبين وإبريق مياه باردة بشراب اللوز. كان لطيفاً للغاية، مقلاً في كلامه دقيقاً فى

حديثه. لم يكف عن تكرار أنه يجد مبادرتى شجاعة، وأنه سيبذل قصارى جهده لمساعدتى وأنه لا يزعجه مطلقاً محادثتى عن تلك الحقبة، بل إن الأمر على خلاف ذلك. خالجنى الشعور أنى أطرح عليه أسئلة شديدة الخصوصية وكأنى أسأله عن خصائص جسده أو عن ميول شهوته. هل لك أن تتخيل أن تطرح مثل هذه الأسئلة على أخيك الكبير. راح هوج يتأرجح فوق مقعده بالحديقة. فى طفولتنا، كان يفعل ذلك دوماً فى المنزل - خاصة فى المطبخ العائلى- بالأقمشة التى كانت تتدلى من السقف و بالأثاث المصنّع من الفورمايكا الصفراء. كانت والدتى كثيرًا ما تعتب عليه هذا التصرف ولكنه لم يكن يتأثر بملاحظاتها. كان يتوقف بعض الشىء ثم لا يلبث أن يعاود بمجرد أن تدير ظهرها. كانت تتحدث عن البلاط، عن كسر الجمجمة، عن المستشفى، وأخيرًا عن أرجل المقاعد التى كانت على وشك التحطم من كثرة سوء الاستخدام، ولن يكون أمامنا بعد ذلك سوى تناول الطعام ونحن واقفون وممسكون بالأطباق. كنت أخذ كلامها مأخذ الجد بشدة وكلما كان يعاود أخى الترنح، كلما كنت أنزعج. نادرًا ما كان يعلو صوت والدتى، كانت لا تهز كتفيها ولا تخفض يديها. دون أن تمل، كانت تكرر، تشرح، تحاول أن تفهم. رغبت أن أذكّر هوج بذلك، إلا أنه كان بعيدًا، فى عالم آخر، فى عالم تصل إليه تأملاتى خافتة وواهنة ليس إلا. إنه هو المصيب. إذا لم يتحدث مباشرة فلن يتحدث مطلقاً وستظل كلمات العذاب تلك تفصل بيننا.

ماذا كان يقول هوج؟ ماذا كان لديه لإخبارى به؟

فى البداية، بدا الأمر مخيبًا للآمال. مثلما هو الحال عندما تقابل للمرة الأولى صديق المراسلة الإنجليزى عقب الخروج من المعدية. تم ذكر أرقام وأسماء دونتها جميعاً بدقة وأنا متسائلة عن سبب انتظارى كل هذه السنوات للحصول على معلومات بسيطة مثل هذه (اعتقدت أنها غير ذات قيمة وندمت على ذلك). فى خريف ١٩٦٢، كان هوج ملتحقاً بمدرسة داخلية على مسافة ستين كيلومترًا من باريس-أى على بعد ساعة بالقطار من محطة لاجاردى نور. كان قد انضم إلى الصف الرابع وأكمل لتوه أربعة عشر ربيعًا. فى صباح أحد الأيام، على الأرجح يوم اثنين، (أوضح هوج أنه يجدر التحقق من نتيجة تلك الحقبة) استدعاه المدير فى مكتبه ليقول له بصوت حنون إن والده مات لتوه فى حادث سيارة. تقبل هوج الخبر دون إدراك ما يحدث له. فالسؤال الذى طرحه على نفسه كان جسيمًا، بل ربما مفزعًا أكثر من الحادثة ذاتها.

السؤال؟ سكت أخى لبعض الوقت، كان يجد صعوبة فى صياغته حتى بعد مرور أربعين سنة. ارتشف جرعة ماء، علت تفاحة آدم أخى ثم انخفضت وكأنها تعد حلقه لمرور كتلة كبيرة الحجم: رفعت جفنى والتقت نظراتنا فأسرع بالنظر إلى أسفل . كانت هناك شائبة صغيرة عالقة فى رمشه.

استأنف قائلاً: السؤال يتلخص فى ثلاث كلمات: من الذى مات؟

نعم من الذى مات فى الحادثة، والده أم زوج والدته؟

كانت والدتنا قد تحدثت حتماً عن «زوجها» لمدير المدرسة وهو رجل دين لم يكن على علم بزواجها الأول وبالتالى بطلاقها، وقد قام ببساطة بنقل الخبر كما تلقاه. أدرك أخى أنه لن يحصل على الإجابة من داخل هذا المبنى إلا إذا قص تاريخ العائلة وهو ما كان يخشاه قبل كل شىء. لم يكن أمامه سوى الانتظار. فالحزن، كان دوماً حليفه وكذلك الصمت. على الأقل، سيتجنب المدرسون لبعض الوقت عتابه على غفلته وسيزيد تسامحهم هذا من ألمه، سيربتون بأيديهم بخفة على ظهره تربيتاً محملاً بالمعانى وسيعطونه علامات أكثر قليلاً مما يستحقه رغم أنه لم يكن بليدًا فى الفصل، بل على العكس، ولكنه كان دوماً شديد التحفظ، منزوياً على نفسه، مستترًا وراء هذا الجسد الضخم الذى كان يحمله مثل ساتر الهواء.

ورغم قرب المدرسة الداخلية، لم يكن هوج يعود إلى باريس فى جميع الأجازات الأسبوعية. وعلى ذلك، لم يحتفظ بأية ذكرى لمكالمة هاتفية مع والدتنا حول الحادث. يا له من أمر لا يصدقه عقل، جميع أيام الصمت هذه، جميع هذه الأيام التى نشك خلالها فى هوية المتوفى. هل لك أن تتخيل الليالى، الشعور بتأنيب الضمير، أى والد يجب قتله ليعيش الآخر؟ فى الأحد التالى ذهبت الصديقة الألمانية بريجيت لزيارته، ولتسليته اصطحبته إلى أحد سباقات السيارات -وهو ما يعد ترفاً- واستنتج أخى من خلال الحوار أن المتوفى هو روجيه.

هل سكن ألمه؟ لو كنت مكانه لاسترحت. سألته إن كان يتذكر أول مرة عاد فيها إلى باريس بعد إعلان المأساة. توقف هوج عن الترنح وأمعن فى التفكير إذ كان لا يريد

أن يتفوه لى ببلاهات. كان ذلك كله قليل الوضوح فى ذهنه. همّ بتناول المياه مرة أخرى، رفع ببطء الكوب وقربه إلى فمه ثم أعاده دون أن يشرب. عودته إلى باريس.. نعم، تمر بمخيلته صورة جريدة لوتوجورنال التى جاءت باسم روجيه نيميه والتى طلبت منه والدتنا إخفاءها فى حقيبته المدرسية كى لا نجد مصادفة المقال الذى خصص له. كما يتذكر مكالمة هاتفية طويلة للغاية، فى صباح يوم الأحد بالتأكيد، حول الديون التى تركها زوج والدته: الأقساط الاجتماعية غير المدفوعة منذ ثلاث سنوات، الفوائد الناتجة عن تأخر السداد ،الأقساط الواجب دفعها للتأمين بالإضافة إلى مصاريف قطر حطام السيارة التى كان يجب تسويتها للجراج. هل كان عليها هى أن تهتم بذلك؟ يتذكر هوج أيضاً مارتان وهو ينتحب عند المائدة، مارتان الذى علم لتوه، وفقاً لهوج، وفاة أبيه. ينتحب، هذه هى الكلمة التى استخدمها. كانت هناك رائحة حساء يقطين عند المدخل. كان هوج يتذكر ذلك كله الحساء ونكهته، أما عنى فإنه لا يتذكر شيئًا. وإلى، لا توجد أدنى إشارة فى روايته. اغتظت عليه لأنه لم يحتفظ بأدنى ذكرى تخصنى. كم رغبت أن يحدثنى عن تلك الفتاة الصغيرة التى كنتها فى الماضى. ولكن الفتاة الصغيرة كانت شفافة، كان لا يلعب معها ولا يعلم أسماء عرائسها. أعتقد أن عروستى المفضلة آنذاك كانت تدعى كورا وكانت شديدة الأنوثة. وكان لدى أيضًا فرانسوا، دمية عارية من البلاستيك الوردى كنت أضع حولها وشاحًا من الحرير. كانت دمية بلا جنس ولا سرة. مراسم دفن زوج والدته؟ هوج لم يحضرها و لم يحدثه أحد عنها. فى الصيف التالى ليس

إلا، عندما كان يقضى أجازته الصيفية فى سان كيه بورتريوه، علم بمحض الصدفة، وبطريقة غير مباشرة من خلال حوار بين أشخاص بالغين، أن جسد روجيه نيميه يرقد فى سان بريوك. وانتهت القصة هنا.

لم أكن أعلم وقت دفن والدى أنه توفى. فلم أعرف ذلك إلا بعد مرور عدة أيام، أسبوع أو ربما أكثر. فمنذ اليوم التالى للحادثة، أوكلتنا والدتنا إلى أبيها الذى كان يعيش فى منطقة نورماندى. فقد نحتنا جانبًا ووضعتنا تحت حماية هذا الرجل الذى كنا نكن له كل الحب. كانت والدتى قد ارتجفت عند اكتشافها الصور المنشورة فى بارى-ماتش بلا إجازتها بالتأكيد، تلك الصفحات المكتظة التى نرى فيها الجسدين بالمستشفى. وماذا لو وقعت أعيننا عليها بلا قصد؟ أو حدثنا أحد عنها؟ تخيلى إنك ذاهبة للتسوق فى القرية مع جدك وعند مرورك أمام بائع الجرائد تعرفت على اسم أبيك مكتوبًا بأحرف كبيرة على الملصق. إنه لم ينشر كتاباً، لا، بل إن وفاته هى التى تتداولها الأخبار. يجذبنا جدنا لإقصائنا بعيدًا، يحاول إغراءنا بالحديث عن الكراميل والآيس كريم. وبينما أستعد لإتباعه، لايستسلم شقيقى، يأبى أن يتحرك. فهو يستطيع القراءة. يعلو صوت جدى ويجذبه من ذراعه. ولكن مارتان يقاوم، يصرخ، تطل أوجه من النوافذ وأظل أنا، أنا هناك، واقفةً بثبات أمام الملصق، محاولةً استخلاص المعنى. من هى هذه السيدة الشابة المجاورة لوالدى؟ لماذا كلاهما مغمض العينين؟ وهذه السيارة، ياآلهى، هذه السيارة...

أبتعد دون أن يكترث أحد، فالجميع منشغل بمشهد مارتان الذى يرفض التحرك. أود أن أهرب من ذلك، من الصرخات، من الحرج. أن أهرب من نظرات الناس المنصبة على شقيقى، وعلى الملصق أيضًا. فالجميع يعرفنا هنا، والجميع يعلم أن هذه المرأة ذات الشعر الطويل ليست أمنا. سأذهب للاختباء فى مكان ما، فى الشارع الواقع خلف الكنيسة يوجد ركن على اليمين، سياج، وهناك لن يجدنى أحد.

ولكن لا، الأمر لم يحدث بهذه الطريقة بالنسبة لنا، نحن الصغار. بل كان أكثر صمتًا، أكثر تقلصًا مثل البلوفر المنسوج من الصوف الذى يتم غسله بالمياه الساخنة، أكثر تضييقاً للأنفاس أيضًا. تم إعلان الخبر فى غرفتنا بباريس، كنا بالقرب من النافذة وكانت الستائر نصف مغلقة. أتذكر بكل دقة الجمل التى استخدمتها والدتى. اقتضى الأمر عليها حتماً أن تعيد صياغتها أكثر من مرة، أن تكررها فى رأسها مرارًا وتكرارًا. كيف السبيل إلى إخبار طفلين فى الخامسة والسادسة من العمر بأن أباهم توفى؟ إنى أطرح عليك السؤال، كيف كنت ستقولها أنت؟

- تعرض بابا لحادثة سيارة. اصطحبناه للمستشفى ورحل.

راحت والدتى تقول ذلك وهى تضغط على المنديل الذى كان فى يديها. لم أفهم على الفور لماذا قالت هذه الكلمات وكأنها تنشر سبقاً صحفيًا مثيرًا: ألم يكن والدنا قد رحل منذ فترة طويلة؟ كنا معتادين على غيابه. أجهش مارتان فى البكاء، وعندها فقط فهمت أن الرحيل هذه

المرة رحيل نهائى. نعم يمكن قول ذلك: إن والدى غيّر حياته. فقد رحل بعيدًا جدًا، إلى بلد آخر. أخذت والدتى تحاول مواساة أخي بينما كانت تمر سيارة مطافئ فى الشارع. رغبتُ فى الذهاب إلى الحمام، حاولت النهوض، ولكنى شعرت فجأة بأن الأرض تنهار تحت قدمَى وبأنى أسقط فى حفرة بلا قاع مثل أليس التى هوت فى جحر الأرنب. لم أعرف إذا كان ذلك ممتعًا أم مزعجًا، إذا كان على أن أخاف أو أن أترك نفسى أنزلق. شعرت بأنى أطفو. ذراعاى خاصة كانا خفيفين، خفيفين. وبينما كانت سقاى تجذبانى لأسفل، كان نصف جسدى العلوى تجذبه يد تدعونى إلى السماء. راحت رئتاى تنفتحان ورقبتى تطول. منذ ذلك الحين، لم أعد هذه الفتاة الصغيرة الثقيلة نوعاً ما التى يعاملها الجميع على أنها طفلة، بل إنسانة محاصرة من قبل حكاية تتجاوزها. نعم، وجدتُ صعوبة فى إدراك ذلك، شعرتُ أنى كبرت من جسامة الموقف. لم أستطع بلا شك التعبير عن ذلك بكلمات ولكنى مازلت أشعر بقوة هذا الهبوط العنيف الذى كان يشبه الطيران، وبالاضطراب الذى أحدثه فى بطنى. شيئاً فشيئاً، تماسك جسدى من جديد. رحت أنظر لستائر غرفتنا بعينين جديدتين. لم أكن قد لاحظت قط أن بها حواش كبيرة لهذه الدرجة، كأن النوافذ قادرة على الاتساع لإعطائنا مزيداً من النور عاماً بعد الآخر. كانت أسرتنا غير مرتبة. أتذكر ملاءات السرير التى كانت تنسدل على اللينوه الأزرق (لا، ليس بالضبط لينوه، لا أدرى، كانت والدتى تشير إليه بكلمة أخرى) أتذكر أنى اعتقدت أنها ستتسخ وأنه يجب طيها، كما يجب ترتيب الدمى المخملية،

تطبيق البيجامات وتنظيم مملكتنا. أمسكت رأس والدتى بين يدى كى أديرها نحوى، كنت أرغب أن أساعدها فى ترتيب الأسرة، أن أقول لها أننا معًا، ثلاثتنا وأن الأمر على ما يرام على هذا النحو. ولكن تجمدت ابتسامتى وسالت الدموع على وجهها الجميل.

فسكبت الدمع لحزن والدتى، و سكبت الدمع لصوتها المحطم. احتضنتنى بين ذراعيها فعدت من جديد صغيرة، صغيرة للغاية ومنذ تلك اللحظة لا أتذكر أى شىء آخر.

مرت عدة أشهر منذ كتابة الفصول الأوَل. عدة أشهر من العمل وبضعة أيام من العطلة قضيتها مع الأبناء. عند العودة إلى نورماندى، أخفقت للمرة الثانية فى الحصول على رخصة القيادة، لقد توقفت السيارة ثلاث مرات عند نفس الإشارة الخضراء بالقرب من المستشفى. كان المرور مكتظاً، على الأقل مكتظًا بالنسبة لمدينة صغيرة إقليمية كهذه، استخدم شخص ما منبه السيارة، وهو ما استاء له الممتحن وكأنه كان موجهاً ضده شخصيًا، وكأن سُمعته كانت مهددة. نظر حوله فى سخط، بدأت أذناه فى الاحمرار ثم رقبته ثم الإشارة فى اللحظة التى نجحت فيها فى تشغيل السيارة من جديد. صفر الممتحن بين أسنانه فأخرج الهواء الذى ملأ وجهه من الغضب، بينما تنفست أنا الصعداء. عادت الإشارة مرة أخرى إلى الاخضرار. كان بعض المترجلين ينهون مرورهم. تنحنح المحرك قليلاً ولكنه لم يتوقف. كانت السماء تمطر وحذائى مبتل وعلى ذلك راح النعل يحدث صريرًا متى ضغطت على دواسة الدبرياج. كانت ماسحة الزجاج

تحدث صريرًا هى الأخرى. أعتقد أنها كانت تعمل بشكل سريع بعض الشىء ولكنى لم أتذكر من أية جهة يجب تحويل المقبض لضبطها. وجه الممتحن الحديث لى قائلاً:

- أوقفى السيارة بعد المغسلة الآلية يا آنسة.

لم تعجبنى كلمة آنسة هذه. هل تجدنى شديدة الحساسية؟ أيجب اعتبار ذلك مجاملة؟ كنت قد أنرت الغماز الخاص بسيارتى منذ لحظة، عندما تجاوزنى سائق دراجة نارية من اليمين. ضغط الممتحن بشدة على دواسة الفرامل وتنهد قائلاً:

- حسنًا. سنقف صفًا ثانيًا، لا تهتمى بالركن بين السيارتين بجانب الرصيف. سأتولى أنا القيادة.

توقف حديثنا هنا. لقد ابتعدت بالفعل الدراجة النارية. قدت السيارة لمدة إحدى عشرة دقيقة و أربع وثلاثين ثانية. عند عودتى إلى المنزل، استجمعت الشجاعة الكافية لكتابة رسالة إلى مارتان لأطلب منه أن يقص على وفاة والده.

لم يتأخر رده. لم تكن الكلمات هى التى تظهر على الشاشة بل الألم. فمارتان يفتح ماضيه على مصراعيه لأول مرة أمامى. سبق لى أن حاولت قبل ذلك بعامين أن أطرح عليه بضعة أسئلة بشأن النزاعات العنيفة لوالدينا، ولكنه لم يجب على خطابى، إنه لم يفدنى حتى باستلامه. ولكن ما يقصه على اليوم يؤيد ذكرياتى. هو أيضًا لم يسمع قط أو لم يرد أن يسمع أن والدنا لقى حتفه، أنه متوفى كما اعتدنا أن نكتب أمام خانة "مهنة الوالد" فى استمارات المدرسة فى بداية العام. م تساوى م. معادلة

تخفى العديد من الأسئلة وراء واجهتها المعتمة. كتب لى مارتان فى رسالته أن والدتنا كانت قد أخبرته أن روجيه أصيب إصابات بالغة ثم أجهشت فى البكاء، الأمر الذى يبرر هذه الفكرة غير الواضحة والمواسية بعض الشىء، على الأقل ظاهرياً، بأنه مختبئ فى مكان ما وأنه سيظهر مجددًا فى أحد الأيام، وكأن اختفاءه لم يكن سوى إحدى الخدع التى برع فيها واشتهر بها. سيدعونا لتناول العشاء وسينظر بعين الفخر إلى أكبر أبنائه.

يعمل مارتان طبيب تخدير وإخصائى إنعاش. هذا هو ما يقوم به منذ أكثر من عشرين عامًا، إنامة وإفاقة الناس. عمل لفترة طويلة فى قسم الطوارئ وهو موقف شجاع ومتميز لمن يرغب دائماً من صميم قلبه أن يعود أبوه. ظل جزء من ماضينا ثابتاً بلا حراك إما على حافة الطريق، إما بالقرب من سرير غير مرتب. لا ينام شقيقى ليلاً، فهو يسهر فى المستشفى، يترقب. جسد ساكن ممدد على النقالة، يد مجروحة، وجه مغطى بالدماء، ولكن هذه إصابات خفيفة، ويمكن اعتبارها حتى سطحية؟ فقلب هذا الرجل الأسمر ذى الشعر القصير الممشط إلى الوراء، لا يستجيب. يجب حدوث معجزة لإبقائه على قيد الحياة.

معجزة، أهذا طلب مبالغ فيه؟

يعتقد مارتان ذلك ولكن لا مجال للاستسلام. كان مارتان يعتقد ذلك أيضًا عندما كان يطلق من غرفته بالدور الأول بنورماندى نداءات للعالم أجمع. كان قد أنشأ بذاته محطة اتصالات لاسلكية خاصة. كانت الهوائيات تمتد بطول السطح. كنتُ أتأمل إمكانياته الفنية، جلده واستبساله. عند المرور فى الرواق، كان بإمكاننا سماع:

- آلو، تتتشششش، هنا بابا شارلى، تتتشششش، أسمعك جيدًا، تتششششش، وأنت...

اليوم لدى عودته إلى المنزل، سيتابع شقيقى أبحاثه على الإنترنت. وإذا كانت الأدوات قد تقدمت، فإن شهيته لم تتغير. فهو يقضى ساعات أمام الشاشة. أنشأ شقيقى عدة مواقع الكترونية واحد منها خصص للأحذية، يقوم فيه بعرض مجموعته الشخصية ويضع عليه جميع أنواع المعلومات الدقيقة أو الغريبة عن الأحذية الجميلة. فنجد عليه نصائح عدة بالإضافة إلى لائحة الإكسسوار الضرورى للمحافظة على الأحذية: فرشاة صغيرة للسيور الجلدية، وأخرى كبيرة من جلد الخيول، خرقة من الأفضل أن تكون ملاءة قديمة أو قميص بال كى لا يمتص الورنيش ولا يحرق الجزء السفلى من الجلد المدموغ.

ويشير شقيقى أسفل قليلاً إلى أن الورنيش يفيد فى تغذية الجلد بافتراض أن باستطاعتنا تغذية أنسجة حيوان ميت.

فى اليوم التالى، عاد مارتان لممارسة عمله بالمستشفى. أشعر بقرب شديد تجاهه رغم الصعوبة التى نواجهها فى التحدث. أشعر بأننا نمارس نفس المهنة ولكن بأشكال مختلفة. فمسئوليته أثقل بكثير من مسئوليتى إلا أن الإيمان الذى يحركنا واحد. أدركت ذلك فى ليلة ما، عندما رحت أصحح الفصل الأول من روايتى عن التنويم المغناطيسى ومنذ ذلك الحين لم يتركنى قط هذا الحدس. الكتابة من أجل الاستيقاظ، الكتابة من أجل النوم، الكتابة والعينان مغمضتان: غالبًا ما تتكرر هذه العبارات عندما

يُطلب منى التحدث عن عملى. لا أدرى كيف سيكون رد فعل شقيقى عند قراءة هذه الأسطر. ولكن يبدو أن ذلك كان السبيل الوحيد لنا لتجاوز الحقيقة المزدوجة لهذا الوالد الشبح. شبه الغائب فى حياته، شبه الحاضر فى وفاته. مخلوق استثنائى كما يقص أصدقاؤه. ولا ليس حزنًا هذا الذى أراه فى أعينهم عندما يتحدثون عن هذا الرجل الذى أحبوه بل هو نور.

تُرى، أسيأتى يوم ما أشاركهم فيه هذا النور؟!

أفكر من جديد فى السياج الخلفى لكنيسة القرية، فى وجه جدى لوالدتى الذى قام برعايتنا بعد الحادث. كان يلقبنى بالـ"سمينة"، الأمر الذى وجده الجميع طبيعيًا وغير سيئ، فلم يكن يضمر أى شر. كانت هناك الـ"بيضاء" فى حظيرة الماشية و"مزمار" و"جادة" فى الحقول الخلفية للمنزل. لطالما تعلقت كثيرًا بالأبقار، كنت أحب رائحتها وأتعجب لقدرتها على تحويل المروج إلى لبن، الأخضر إلى أبيض، النهار إلى مملكة سلمية لا تشعر فيها بالملل على الإطلاق.

فى أقل من ساعة، سيخرج الولدان من المدرسة. وبينما كنت أنتظرهما، رحت أعيد قراءة الملاحظات لأجد نصاً لميشال ديون يتحدث فيه عن والدى. كتب يقول، بعد مرور عام على الحادثة" ربما يمكننا الآن أن نشرع فى تصديق وفاته".

وبعد عدة أسطر : "لكن يجب أن نقتنع بذلك، فغياب طويل كهذا يتعذر علاجه"

أضع خطأً تحت هذه الجملة الأخيرة. أود إرسالها إلى مارتان ولكن شيئًا ما يمنعنى. أخشى أن أجرحه.

فى الشتاء الذى أتممت فيه العاشرة من عمرى، وجدت عن غير قصد نسخة مصورة صفراء اللون من وصية والدى. كان النص يشغل صفحة واحدة ضربت على الآلة الكاتبة، وكان لا تشوبه شائبة. أوصى الموقع بأن تذهب غالبية كتبه علاوة على مجموعة أسلحته إلى بعض الأصدقاء. وحدد بدقة أثناء كتابة المستند أن سيارته الحمراء ستكون من نصيب امرأة نسيت اسمها، وسيرث ابنه مارتان المجموعة الكاملة لأعمال ألكسندر دوماس وسبعة عشر مجلدًا من قاموس لاروس القرن التاسع عشر، بالإضافة إلى الحقوق الأدبية الخاصة بأعماله وذلك عندما يبلغ السن القانونية لممارستها. أما أنا، فكان نصيبى الحسرة.

ثنيت الورقة بعنف وضغطت عليها بشدة و ألقيت بها فى المدفئة. وجدت الكرة الورقية صعوبة فى أن تُتلف، فدفعتها نحو الشعلة بمقبض . لما لم يترك لى والدى شيئاً؟ أى شيء؟ أية مسئولية؟ كان الأمر يستحيل تصديقه بالنسبة لى. هناك حتماً خطأ ما، شيء لا أستطيع إدراكه، أضفت قطعة حطب ثم قفصًا خشبيًا صغيرًا ثم ورقاً. لم يكن الخشب جافًا تمامًا فكان يطلق فقاقيع صغيرة شبيهة باللعاب. وإن لم أكن ابنة روجيه نيميه؟ وإن كنت، لا أدرى، ابنة بطل القفز بالزانة، هذا الذى تظهر صورته وهو يطير على الصفحة الأولى لمجلة ليكيب. هذا قد يفسر الأمر كله: مأزق الوصية والخلافات المنزلية. لقد كانت صفحة

الجريدة معلقة على باب الدولاب وكنت دائمة التساؤل عن سبب وجودها هناك، كانت الصورة مهداة وكان التوقيع دائرى الشكل، شبه طفولى تم فيه استبدال نقطتى حرف الياء الموجود فى اسمى بقلبين.

قافز الزانة، أن أكون ابنة قافز الزانة، ماذا يعنى ذلك؟ لم أشك ولو للحظة واحدة أن هذا الوالد على قيد الحياة، الأمر الذى يجعله -مقارنة بالآخر- أعلى شأناً بالتأكيد. وتستمر الأسئلة؟ ماذا سأرث إذا وافته المنية؟ أحذيته؟ زانته؟ وأين سأضعها إذا امتلكتها؟ هل سأصبح مجبرة على العيش بداخل شقة يبلغ ارتفاع سقفها ستة أمتار؟ هل يمكن تفكيك هذه الأدوات؟ هل يتم إدخال أجزائها المختلفة فى بعضهاالبعض؟ كيف أنقلها وكيف نتعامل معها فى الطائرات؟

ظلت هذه الفكرة تطاردنى حتى نهاية الأجازة. ندمت على حرقى لوصية والدى، خشيت أن تبحث عنها والدتى دون جدوى، وأن أضطر إلى الكذب عليها.

عند العودة إلى المدرسة، كان الرضوخ لحكم الواقع أمرًا لا مفر منه. كان لابد من تغيير الجسد مجددًا، المستوى، الانتقال من الزانة إلى القلم، من ألياف الزجاج إلى ريشة الصلب. فوالدى لم يكن رياضيًا ذا مستوى عال، ولكن كاتب اختفى فى عز شبابه مثلما يقرأ الجميع فى القاموس. كان يكفى أن نضع صورة كل منا جنبًا إلى جنب لنقتنع بذلك، كنا نحمل نفس الاسم، نفس الجبهة، ونفس المعاناة.

يجب أن نكون قادرين على الاعتراف بذلك حتى ولو كان عمرنا يناهز العاشرة. إنهم يتطلعون إلىَّ بنوع من الفضول، هؤلاء الذين كانوا على صلة به. كانوا يجدون فى المرأة الشابة ملامح روجيه نيميه، بل كانوا يرون تشابهاً حتى فى حركات الأيدى: الطبعة النسائية من نيميه، يا له من أمر غير مسبوق، فأبدًا لم يتخيلوا إمكانية حدوث ذلك. إلا أنى فى العاشرة من العمر لم أكن أعرفهم، أقصد أصدقاء والدى. لم يكونوا يرتادون قط على المنزل- وكان على انتظار نشر أولى رواياتى كى أضفى على بعض الأسماء التى كانت تتردد، على فترات متباعدة، من حولى شكلاً وصورة، مكونة تدريجيًا نواة الفلك الأبوى. فلك غامض يخفق من فوقه شعار لا يقل غموضًا: كلمة فارس الخيالة-وسأعود إليها- التى يخيل لى أنها تنتمى إلى قرن آخر. ربما يفسر غياب أصدقاء والدى السهولة التى وجهت بها أحلامى نحو قافز الزانة. ارتبطت عندى أجازات الشتاء تلك بذكرى سعيدة. فلم أنشغل قط لهذه الدرجة بالمدفأة، كان الآخرون يخرجون للتنزه بينما أظل أنا هناك، أمام النيران، حالمة. فهكذا كان الوالد الذى اخترته جسدًا مندفعًا فى الهواء، جسدًا رياضيًا متناسق البنية، صدرًا قويًا يبرزه الرداء الضيق، جسد بهلوان بأوردة بارزة، حذاء صغير أبيض محكم بدقة حول رسغيه الرفيعين، حذاء صغير سلمى، خال من جميع المسئوليات المرتبطة بوضعه الخطر. ما من ثنية، لا يوجد ما يمكن ملاحظته من هذه الناحية، ما من شق واضح. تكمن نقطة ضعف قافز الزانة ليس فى كتفيه أو ظهره، مثلما قد تعتقد عند رؤية الصورة، بل فى كعبه بالضبط، أو ربما فى

عَقِبه عند الاستعداد للقفز، فى عقبه أو فى كعبه، فى الاثنين بلا شك اللذين عليهما تحمل مئات الكيلوجرامات عندما يتوقف اللاعب عن الركض عند المصّد الذى يغرز فيه زانته. (عليك أن تحسب -الأمر يتلخص، مثلما شرحه لىّ شقيقى، فى الصيغة التالية: الطاقة= الكتلة X سرعة الضوء٢ -وستفهم مدى المعاناة، كأنك تختبر مقاومة أنفك بالعدو مباشرة نحو حائط).

لست واثقة أننى نقلت شرحه بدقة، وعلى كل يبقى أن نقول إن : القدم تتثاقل، أن الألياف تتقطع وأن العظام تتشقق وبذلك تنتهى الحياة المهنية لبطل.

وها نحن من جديد، القفز بكل سهولة ويسر والثبات بأعلى. طموح زائد يمنع من النزول وثقل زائد يمنع من تخطى حاجز الخمسة أمتار القدرى الذى يمثل القمة العليا التى يحاول الجميع تجاوزها. مراكبى بلا مركب، معلق بين السماء والأرض: لم يكن والدى قد بلغ الثلاثين من عمره عندما قرر التوقف عن كتابة الروايات. بينما كان يُعد من أفضل عشرة روائيين فرنسيين وفقاً لتحقيق نشرته لينوفال ليتيرار، أوقف طواعيةً مسيرته. كان هذا القرار بإيعاز من صديق له يكبره بأربعين عامًا. كان هذان الاثنان يتراسلان يوميًا لعدة سنوات. كان المراسل يدعى بوتيلو، جاك بوتيلو وهو ذاته من نعرفه باسم جاك شاردون. باح هذا الأخير لوالدى قائلاً: "إنك كاتب نادر، كاتب نادر تتدفق عنده الأفكار بغزارة. فعندك، نشعر وكأننا فى متحف خالٍ من المقاعد، خلاصة القول، كتابتك تجعلنى غير قادر على التقاط أنفاسى".

لعب الكراسى الموسيقية بلا كراسى ـ فقط الموسيقى. الكراسى الموسيقية. ترى من لم يلعبها؟ هذا التعجل،هذا الصـــــراخ، هذا الخليط من الإثارة والهلع عند توقف الموسيقى. عما تريدين التحدث؟ عن والدى، عن صمت والدى، عن الليلة الطويلة التى سبقت وفاته، عن هذا الوقت المعلّق الذى شهد ولادة أبنائه. إذاً هيا بنا. فلنترك جانباً قافز الزانة والكراسى الناقصة. كفانا اختفاء. لابد من التذكير بأن جاك شاردون عندما يتحدث عن الصمت، فإنه يدرك ما يتحدث عنه. إنه كاتب مر منذ بداية أعماله بفترات طويلة من الجدب، من النضوب المطلق على حد تعبيره. فهو كاتب كان يتشكك وقت أخذ يراسل والدى من قدرته على إنتاج كتب أخرى. وبإصرار لا يخلو من الفخر، كان يشرح لمن يريد سماعه أنه أمر روجيه نيميه بالانزواء لمدة عشر سنوات. الانزواء. هذه هى الكلمة التى اختارها. وأضاف قائلاً أن نيميه آخر يجب أن يخرج منها بعد ذلك، فالحياة الأدبية طويلة للغاية وعلى الكاتب أن يموت ويُبعث.

هل أخطأ جاك شاردون؟ لقد مات والدى على حد علمى ولكنه لم يُبعث.

فى هذا الصباح، بعثت لى ابنة عمتى مقالاً طويلاً عن سيرة داشيال هاميت، مؤسس الرواية البوليسية الأمريكية وكاتب الحصاد الأحمر والقصة الشهيرة الصقر المالطى. تذكرتنى وهى تقرأ هذا النص وتذكرت العمل الذى أقوم به.

عـرفتُ أن داشـيـال هاميت كـان لديه ابنتـان مـارى

وجوزيفين. فى خطاباته، كان يلقبهما إما بميكروباته، أو بأميراته، أو بساذجاته. حاولت أن أتذكر الكلمات الصغيرة التى كان يستخدمها والدى عند تحدثه إلىّ. ما من شىء من هذا القبيل، بالتأكيد. كنت بالنسبة له ملكة صامتة. لقب شاعرى هو رغم ما يتركه فى حلقى من مذاق مرير، مذاق الحديد والدماء. أية ملكة تلك التى كنت أثيرها فى نفسه، أنا التى أعطاها اسمين مارى وأنتوانيت فى السجلات المدنية؟ ملكة صامتة، ملكة سيتم قطع رأسها...

تناول بقية المقال بنوع من الشغف مسيرة روجيه نيميه. لم يكن داشيال هاميت قد تجاوز الأربعين عندما ترك الكتابة وهو على قمة إنتاجه الأدبى. ماذا فعل بعد ذلك؟ تُرى أية مهنة امتهنها؟ ترك داشيال هاميت واسمه الحقيقى صامويل هاميت دراسته عقب وفاة والده ،وكان عمره آنذاك أربع عشرة سنة. كم كان يبلغ والدى عندما أودى المرض بحياة أبيه؟ أربعة عشر عاماً، أليس كذلك؟ يجدر أن أتأكد، أن أعيد الحساب. دائماً ما يساورنى الشك عندما يتعلق الأمر بالحديث عن والدى بشكل دقيق، عندما يجب أن أقول تاريخ ميلاده، يوم حادثته أو عدد الكتب التى نشرها. لا تتوافق الأرقام مع الصورة التى ابتدعتها مخيلتى له، صورة مهتزة وكأن المرآة التى تعكسها تعلوها طبقة دهنية. فعلى جسده الطافى لا تظهر سوى فكرة غامضة عن وجهه، وجه تركت كلمات الآخرين آثارها عليه، وجه أعرفه دون أن أراه، دون أن أستطيع أن أراه.

كلمات؟ مثل شفة سفلى ضخمة ومستاءة، نظرة خفية، عينين خضراوين متغيرتين، قبعات غريبة، ضروس غير متساوية، وهلم جرا.

الأمر أسهل بكثير بالنسبة لى أن أتخيل جدى بول نيميه رغم كونى لم ألتق به قط. لم أر له سوى صورتين وفى كلتيهما يرتدى نفس القبعة اللينة. كان جدى رغم شاربه المريع الكث القصير، رجلاً نحيفاً، صلباً نوعًا ما، يبدو على ملامحه اللطف والتواضع، فهو من الأشخاص الذين يتراجعون للوراء كى يمر الآخرون على السلم.

كثير هم الكُتّاب الذين شهدوا أثناء طفولتهم وفاة آبائهم، فهل يتحول هذا الفقدان المبكر إلى آلة صغيرة يتم تصنيعها من الكتابة والصمت بالتبادل؟ من الكتابة فى بادئ الأمر لسد الفراغ ثم من الصمت لمسامحة النفس على سرقة كلام الوالد، على الاستيلاء عليه؟ طالما ظلت الكتابا سرية، فما من مشكلة، ولكن ما إن تصل إلى درجة معينة من الشهرة، فإن الأمور تتعقد. أليست الأهمية التى تحظى أنت بها مغتصبة؟ من أنت لتستحق جميع هذه الإشادات؟ يجدر إعداد قائمة جميع هؤلاء الكُتّاب المتوفى آبائهم، وهؤلاء الذين تراجعوا وتنحوا جانبًا لنرى إذا كانت هناك علاقة متبادلة. ولكن ألا يزال كاتبًا من لم يعد يكتب؟

هل ما زال روائياً من لم يَعُد يكتب الروايات؟

الإجابة بديهية. استطعنا قراءة كتبًا كاملة حول هذا الموضوع، كتباً بديعة عن العدول عن الكتابة الأدبية الذى يمثل للبعض أسمى نهاية لمسيرتهم الفنية. بطبيعة الحال، يظل كاتباً والقارئ على يقين من ذلك. أما بالنسبة لمن يهمه الأمر فى المقام الأول، هذا الذى يحتار أمام الصفحة

البيضاء أو يهملها بطريقة إرادية، فالسؤال يثار بطريقة أشد قسوة.

هل من الضرورى إضافة عنوان جديد للقائمة اللانهائية للروايات التى سبق وكتبتها؟ هذا هو السؤال الذى يطرحه على نفسه عندما تفصله سنوات عديدة عن آخر أعماله.

يشرع فى البداية لعشرات المرات ثم يتراجع، يدون ملاحظات، يستيقظ ليلاً على فكرة مضيئة ولكنها لا تلبث أن تفقد بريقها فى الصباح، لا يتجرأ أصدقاؤه على سؤاله إلى أين وصل، من باب الذوق بلا شك، حتى لا يتم إحراجه، يتظاهرون باهتمامهم بأعماله اللاحقة ثم يندهشون شيئاً فشيئاً من أنهم يهتمون بالفعل بها. فى السينما كما فى الصحف، هناك حاجة إلى إناس يعرفون بناء الجمل. يتبدل المركز ويتغير العالم، وبذلك يموت كاتب ويُدفن تحت وطأة النصوص المفروضة عليه.

أفكر مرة أخرى فى والدى، فى صمت والدى، أفكر فى اضطرابه عند قراءة خطابات جاك شاردون، أبكى على صمته كما أبكى على اختفائه أكثر من أى وقت مضى. كيف يعقل أن يأخذ قرار مثل هذا فى عمر التاسعة والعشرين؟ ماذا كان يظن؟ أن لا موهبة له؟ أو على العكس أنه يتمتع بالكثير من الموهبة و الكثير من الفكر، ولكنه يفتقد إلى القدر الكافى من..مما؟ من النجاح؟ هل كان يجب أن يحصل على جائزة الجونجور؟ هل اعتقد أن الآخرين لا يعرفون كيفية قراءته وتقديره وأنه ضاق ذرعاً من عدم فهم الآخرين له؟ أن الصمت هو السبيل الوحيد

لإزالة سوء التفاهم هذا؟ إن جميع المقاعد كان يشغلها- مثلما يشير كاتب سيرته الذاتية- من يعيشون من الأزمة الأدبية، من يجنون المكاسب منها، من جعلوها مادتهم المفضلة؟ ففى العام ذاته الذى أعلن فيه والدى توقفه، كان بارت انتهى من الدرجة صفر للكتابة، و كان يتم نشر المحاوات لروب جريليه. يجب التأكد من التواريخ، ولكن بشكل عام، نعم، المحاوات والدرجة صفر فيما كان والدى يندثر.

تُرى ماذا تردد فى نفس روجيه نيميه؟ أنه لم يلحق بقطار الحداثة؟ استمر والدى فى عمله بالتأكيد، فعليه أن يكسب قوت يومه، كتب أعمدة نقدية، مقدمات كتب، مقالات، بطاقات قراءة، خاطرة نثرية، بضعة سيناريوهات ثم خطابات، العديد من الخطابات اليومية لأصدقائه، لم يسبق له أن كتب مثل هذا الكم إذا أحصينا عدد الصفحات المتبادلة. كان يخترع شخصيات، ونظرًا لتعذر إخراجها فى رواية، قام بتجسيدها. من هنا، تم نعته بالمازح، فلا عزاء له. لو حثه أى شخص على مراجعة قراره، لكان استمع له، لكان امتزج بكلام هذا الآخر وتقبله. ربما كان الأمر لا يحتاج سوى لقارئ، قارئ واحد فقط. ليتنى كنت أنا هذا الشخص الذى بمقدوره إيجاد الكلمات التى من شأنها إعادة ثقته فى الرواية. إنها شكل خصب لهؤلاء الذين لا يرون أن الحياة أمر بديهى. ولكن يبدو أن ما من شخص قام بهذا الدور بصورة مقنعة. فأصدقاؤه من الكُتّاب ينتظرون منه عملاً ربما يكون غير قادر على بنائه، نخشى عليه من العقم، من العجز، من الشلل وعلى ذلك نفضل احترام رغبته. أحيانًا يتشابه

الاحترام مع عدم المبالاة، مع الجبن وتتشابه القفازات الساتان مع قفازات الملاكمة. خروج نيميه، نيميه الضخم، نيميه المربك. إن التخلص منه سيعود بالنفع على الآخرين إذ سيفسح المجال للأوزان الخفيفة.

فى العام السابق، فى نشرة الواحدة بعد الظهر، تم استضافة المتسلق *والتر بوناتى*. كان قد نشر *لتوه كتاباً* عن صعوده قمة الهيمالايا (k2) الذى كاد أن يودى بحياته. وأعلن للقناة التليفزيونية -وهو ما اعتبرته غير لائق أن يقال على لسان متسلق جبال- أن النجاح لا يتم الصفح عنه مطلقاً، دونت هذه الجملة جانبًا، وأدركت اليوم فقط معناها. هل كان والدى هو الآخر ضحية صعوده السريع للغاية؟ هل توفى نتيجة اختناقه من الغيرة شبه المتيقظة لهؤلاء الذين ادّعوا أنهم أصدقاؤه ، الأساتذة الناضبين، الكتاب المهمَلين؟ لقد فتح جاك شاردون ثغرة نفذ من خلالها آباؤه بالتبنى. قالوا له، كرروا له: لقد وُلدت قبل الميعاد، يجدر أن تتسحب، أن توضح أفكارك، ألا تتبع نموذج المواهب الشابة التى لا تقدم جديداً، يجدر أن تترك قلمك جانبًا حتى تتضج.

إن الرجال هم المنوط بهم كتابة مثل هذه الكلمات، ولكن ماذا عن السيدات؟ ماذا يقلن؟ هل يعرفن جملة سانت بوف التى كان والدى شغوفًا بذكرها وكأنه يعيها :"بعض المواقع تقوى من عزائمنا، وبعضها يفسدنا، إلا أننا لا ننضج أبدًا".

نعم، السيدات تعرفن ذلك، تلك اللاتى أردن كسر الصمت. كن دائمات الشكوى من سكوت روجيه. لدى فى

المكتب صندوق ملىء بالبريد الذى كن يرسلنه إليه على أمل الا يتجاهلهن وألا يسخر منهن. إنهن يصورن روجيه الشاب على أنه شخص غريب الأطوار. تصفحت هذه الخطابات للمرة الأولى منذ بضعة أشهر بتوتر وبعجلة، دون أن أطلع عليها بشكل جيد. لقد ظل هذا الصندوق لمدة طويلة موضوعًا فى سرداب دار النشر جاليمار، ثم وجد لنفسه مكانًا فى منزل شقيقى، أسفل سريره. يا لها من صحبة غريبة. النوم فوق مرتبة من خطابات الحب والضيق. خطابات موجهة لوالد مختفٍ. ليس بغريب أن يستيقظ شقيقى منهك القوى.

فى المساء، مع الأبناء، نقرأ مغامرات بينوكيو. شارفنا نهاية القصة: حيث تكتشف الدمية الخشبية جيبيتو فى بطن سمكة القرش. كان الرجل العجوز- الذى تم ابتلاعه سهوًا فى يوم عاصف- يجلس على مائدة تنيرها شعلة مترنحة لشمعة، بينما راحت قدماه تبقبق فى مياه لزجة. أخذ يمضغ أسماك صغيرة حية كانت تنجح أحياناً فى الخروج من فمه.

عندما تعرف على والده، فقد بينوكيو القدرة على الكلام من فرط المفاجأة، لم يستطع سوى التلعثم بارتباك، وبصّق جمل متقطعة بلا معنى، حتى استطاع فى النهاية التلفظ بوضوح:

-أبتى، أخيرًا وجدتك، لن أتركك أبدًا بعد اليوم، أبدًا، أبدًا.

أبدًا، أبدًا. انكسر صوتى وأنا أنطق هذه الكلمات. دفعنى الولدان فى مرفقى لتنبيهى، فهما لا يحبان أن أتوقف بين الجمل، إنهما يتشوقان لمعرفة البقية. يحتضن

الأب بينوكيـو. هل سـيمـوت كل منهـمـا غـرقـاً فى ذراع الآخر؟. حـان وقت النوم، وقت عـودتى إلى العمل. يتوسل إلىّ إليـو: "صـفـحـة كـمـان يا مـامـا، مش ممكن ترفـضى"، بينمـا يلتصق بى مـارلان محـاكيـاً شكوى حـيوان صـغـير. أستأنف القـراءة، صفـحة تليها أخـرى، جيبيتو لا يستطيع السبـاحة، وكذلك كان والدى، لم يكن يعرف السباحة. كان يخشى الماء، يخشى البحـر كما نخشى الفـراغ، وهو الذى كـان شـديد الفـخـر بأصله البـريطانى إلى درجـة جـعلته يتخيل سلفه من القـراصنة حتى ينسى طفولته الباريسية. أما أنا فأسبح جيدًا بل وأحب السباحة، ولكنى لم أحصل بعـد على رخـصـة القـيـادة. يسـتـاء الولدان عندمـا يكون فـرانك غـيـر مـوجـود ويسـتلزم الأمـرالذهـاب إلى حـمـام السباحة بالدراجات.

وتتتابع القصة، أمام الخطر يستعيد بينوكيو هدوءه، يستعد لتحدى القوى الطبيعية ويحمل والده فوق ظهره دون أن يتأثر بالهواء الذى يدوى فى الخارج. ليتنى أتمتع بقوته، بعزيمته. ما زلت حتى اليوم فى المرحلة السابقة، فى الطور التمهيدى الذى نبحث فيه عن الكلمات، الذى نبصق فيه جمـلاً صـغـيرة. الا تصـدقنى؟ فى يوم مـا، سأريك المسودات التى كتبتها بيدى -النبع الأول كما نقول لنبقى فى الاستعارات المستوحاة من المياه- وستفهم حالة الاضطراب التى تعترينى وأنا أتقدم بمشقة على طريق المعرفة. فهنا بالتأكيد، أمام الجمل المطبوعة، يبدو الأمر سهلاً. ما من شطبة، ما من إحالة فى الهوامش. يتدفق النص وكـأنه أمـر مسلم به. ربما أن هذا أفضل حيث لا نرغب فى رؤية العـمل، لا نـرغب فى رؤية الالتـواءات ولا

إدراك أن بدلاً من التواءات كتبت الندم وقبلها التوبة. إلا أن التوبة كلمة جيدة حيث إنها تجمع فى آن واحد بين تأنيب الضمير والتأديب.

يصدر الكمبيوتر صوتاً غريباً كأنه يجز على أسنانه، العظام هى التى تطقطق والهياكل هى التى تستدير إلى الوراء، إنهم لا يحبون أن يتم إزعاجهم. فبعث متوفى إلى الحياة ما هو إلا التشكيك فى أبديته. أفكر مجددًا فى جسد بينوكيو وهو يتعاضد مع جسد والده بينما كانا يعبران بطن سمكة القرش، كانا يقفان على لسان الوحش خلف ثلاثة صفوف من الضروس. لسان الوحش. ها هى عبارة تصلح لعنوان، سأدونها على ظهر ملف.

أسمع وقع أقدام مارلان الصغيرة على البلاط الأحمر للممر. لقد استيقظ للذهاب إلى الحمام. يطل برأسه على مكتبى، أشير إليه بيدى، يقول لى: "اشتغلى كويس يا ماما، ونامى كويس. أشوفك بكرة". وعاد على أطراف أصابعه.

عند منتصف الليل، هدأ الكمبيوتر، استُخدم طوال ساعتين كاملتين ثم صمت فجأة. تُرى أيظهر جميع الآباء فى لحظة أو أخرى من التاريخ العائلى على شكل وحوش؟ هل ينجح بعضهم فى التخلص من اللعنة؟ أود أن يصف لى شخص ما الشعور بوجود والدين. أب عندما نكون فى الثالثة عشرة، فى التاسعة عشرة، فى الثامنة والثلاثين. أب لم يعد رجلاً شاباً. أب يكبرك بالتأكيد فى السن. لا أستطيع التركيز على هذه الفكرة. لا أستطيع تخيلها. أب يقول لابنه، مثل الفيلم الروسى الذى شاهدته لتوى مع

صديقة لى: "أمهلك دقيقتين لتناول الحساء والخبز". أب يلعب بالطائرة. أب لا تنتظره. أب من، أب ماذا؟

أذهب بدورى إلى غرفة الأطفال. يغط إليو فى نوم عميق وسط الدمى المخملية، بينما أبعد مارلان الأغطية وأدنى اللحاف، إنه يحب رائحة الريش. على المائدة المجاورة للسرير، استرعت انتباهى القصة وهى مفتوحة على الصفحة التى توقفنا عندها والتى نرى فيها جيبيتو بشعره المشابه للكريمة المخفوقة بينما تخرج سمكة من فمه المفتوح. غموض الخلق. غموض الأبوة. كيف يسير الوالد؟ مما صنع؟ من أية مادة؟ من الترجال، المخمل، ورق الزجاج؟ كيف هى جواربه؟ ركبتاه؟ كيف ينسدل سرواله؟ أين يضع مفاتيح السيارة؟ وفواتير الفندق، أين هى؟ ما هذا الصوت، بابا، هذان المقطعان المكرران؟ ما هذه الصرخات التى تأتى من بعيد؟ ما هذه الدموع التى نرفض سكبها؟ فحتى الآن تدبرت حالى بفردى بالقليل من العناصر التى كانت فى حوزتى ولكنى أرى جيدًا أن جملاً مثل جملة بينوكيو (أبتى، أخيرًا وجدتك، لن أتركك أبدًا بعد اليوم، أبدًا، أبدًا) تقلقنى أكثر مما ينبغى. أنظر لأسفل، تاركة نفسى فريسة لانفعال استلزم ساعات كثيرة حتى تلاشى. إنه لخوف مفزع ومشل للحركة هذا الذى يعترينى كلما حدثنى أحد عن روجيه نيميه.

غالباً ما أكتب فى قطار روان-باريس فهو خط ملائم لشرود الذهن. أستقل هذا القطار عدة مرات فى الأسبوع، لى فيه عادات وفيه أشعر أنى على سجيتى وكأنى بالمنزل. ينام الكثير من الناس خاصة خلال العودة،

أما أنا فأنهمك فى الكتابة ونادراً ما أعيد قراءة ما خططته. فهذه الصفحات تعد مصدرًا للإزعاج أكثر منها مصدرًا للإلهام، إنها تنتمى للحظة محددة، لوقت معين. ورغم ذلك، أجد على واحدة منها ملاحظات من المؤسف إهمالها. لا أتذكر أنى خططت هذه الكلمات. فعلى سبيل المثال، تميز روجيه نيميه بثقافة متوحشة، بقدرة مدهشة على العمل، بشهية نهمة وبقلب كبير، كبير للغاية.

أو أيضًا: روجيه نيميه كان بالنسبة للطفلة الصغيرة التى كنتها رجلاً خطرًا. جسديًا خطرًا.

تحت جسدى شُد خط ثم شُطبت الكلمة.

هنا على الفور، ودون انتظار وإلا فلن تفعليها مطلقًا. يجب أن تشيرى إلى أريكة الصالون وقد شقها والدك بطعنات سكين إلى مشاهد الغيرة، إلى التهديدات، إلى الشمعة المطاح بها مثل شمعة جيبيتو والتى كادت أن تضرم النيران فى المكتبة.

وعليكِ أن تشيرى إلى مجموعة الجنود المصنعة من الرصاص، إلى الأسلحة الموضوعة أمام المكتب، إلى المسدس المصوب نحو صدغ شقيقك- لم أكن قد وُلدت بعد ولكن والدتى أخبرتنى بذلك العام الماضى، لقد باحت بكل شىء هنا، على الأرضية الخشبية الفاتحة. كان مونولوجًا طويلاً أفقدنى القدرة على التفوه بكلمة وجعلنى أقدّر للغاية جرأتها على كسر الصمت.

على هذا الشكل، صارت الأمور أو على الأحرى هذا ما قصته علىَّ والدتى. كان مارتان فى مهده، عند نهاية

سرير والدى. أخرج أبى المسدس من أسفل وسادته ووضعه على صدغ ابنه. لم يكن مارتان يبكى، لا، لم يكن بكاؤه هو الذى دفع والدى إلى هذه الحركة المخيفة. وحتى لو كان يبكى، سخيف هو ما تقولين، حتى لو كان يبكى؟

كان لوالدى طرق غريبة فى التعبير عن حنانه.

طرق غريبة فى ترك أثر محبته على رقبة والدتى. مثلاً، بعد مرور بضع سنوات على الحادثة الأولى، ترك والدى بصمات أصابعه على كل ناحية من أسفل عنقها. كم كانت الساعة؟ كان هناك شباك صغير فى الحمام يطل على «بير» السلم، أحاول أن أرى والدى، أن أتخيله ولكن الكلمات فقط هى التى تجيش من جديد فى خاطرى. والدى وهو يصفق باب المدخل، والدى وهو يستند إلى الحائط وينزلق حتى يجلس على الأرض، فى الردهة، رأسه بين يديه. ليتنى استطعت مواساته. أجد له دائماً الأعذار. وفى مرة أخرى، والدى وهو يضع معطفه على كتفيه وينزل الدرج بخطوات محترسة، شديدة الاحتراس. كنا نسكن فى الطابق الرابع، ولم يكن هناك مصعد، يفقد والدى اتزانه ويرتمى جسده بثقل، تهرع نحوه والدتى، تحاول أن ترفعه، أن تسوقه إلى الداخل، أخرج من الحمام، أرغب فى المساعدة هذه المرة، هل تفهم، أرغب أن أكون ذات نفع، لكن والدى يلمحنى ولا أعرف بأى شىء أطاح وبأى اسم سبّنى. ولا أريد أن أعرف. فى اليوم التالى، كانت رائحة المدخل سيئة.

تجدر الإشارة إلى أن والدى كان كثيرًا ما يتناول المشروبات الكحولية، وتخيل طفلة صغيرة إزاء رجل سكير ليس بأمر متكافئ حتى وإن كان كاتبًا ذا شأن، أحد أفضل

عشرة كُتَّاب فى جيله. لا أرغب فى الدخول فى التفاصيل ليس فقط من باب الاحترام والحياء ولكن أيضاً لأن والدى وأصدقاءه محاطون بالفعل بالعديد من النوادر المذهلة، فهم يغذون أسطورة تثير اشمئزازى بعض الشئ. أرغب أن أقص الأشياء الصغيرة، الأشياء التى لا تختزل فى كلمتين: واقف، الكأس فى يده، فى حدائق فندق بعينه. أشياء غير ذكية، غير ملحة، غير براقة، أشياء لا نضحك فى نهايتها ونحن نقول بتعجب "يا لها من شخصية"

أو " هو بالفعل كان كذلك".

أشياء لا مكان لها فى أعمدة المجلات الأدبية، أشياء تقدم جديدًا، على حد قول أصدقائه. أفكر مرة أخرى فى لعبة البيضة البلاستيكية.مبدئيًا، لا يوجد فى البيضة البلاستيكية ما يثير النفوس، إذاً ماذا تريدين أن تقصى؟

كنت وحدى معه فى المنزل فى باريس- لا لم أكن وحدى، كانت معنا الفتاة التى ترعانى. أعتقد أنها كانت تدعى سيلفى ولكنى غير واثقة. سمعت مؤخرًا أن ثمة سيلفى لازمتنا فى صغرنا، ثمة سيلفى من مدينة بواتيه.

أين كان باقى أفراد العائلة؟

بعيدًا ذهبوا وهناك غابوا. أرانى أمام قطع الأثاث المصنعة من الخشب الفاتح حيث كنا نضع لعبنا. فى الأدراج السفلى تم تخزين الوجبات البلاستيكية وفوقها آنية المائدة والأقداح المصغرة. لم يك والدى قد تناول الغذاء، كان جالسًا طوال الوقت على طاولة عمله بين نافذتى غرفة الصالون. لا شك أنه جائع. قررت أن أعد له الطعام، وهنا جاء دور البيضة البلاستيكية التى هبطت

فى وسط الطبق بصفارها الفاقع وبياضها اللامع وقد أُضيف لها بركة من حبات البازلاء المتماسكة. أما الباقى فأنا أتخيله أكثر مما أتذكره وذلك لأن طفلىَّ قاما بنفس الحركة منذ وقت ليس ببعيد: فعلى صينية أخذاها من المطبخ رتبا طقم المائدة، وعقدا الفوطة فى وسطه. اجتازا الشقة، مراعين عدم إسقاط أى شىء، بدءًا من المطبخ مرورًا بالممر، الحمام، المدخل ووصولاً إلى حجرة الآباء التى يفصلها عن الصالون باب زجاجى مزدوج. هناك جلس والدى مديرًا لى ظهره. اختلست نظرة على ما أحمله. كل شىء فى مكانه، أخذت نفسًا عميقًا ووقفت إلى جانبه.

ماذا ترين؟

كتلة. متوازى السطح ضخم للغاية وأوراق فى كل مكان، كتب، ورق نشاف مشدود على قطعة خشب نصف دائرية،ومحبرة شبيهة بمفرمة جدتى- تُرى أين ذهبت هذه الأدوات بعد الحادثة؟ تابعت بناظرى قلمه وهو يستمر فى التقدم على الصفحة وكأن شيئًا لم يكن. راح يخط رموزًا غير مفهومة. وأخيرًا، بعد مرور فترة من الوقت لاحت لى طويلة، توقفت الريشة، وقال والدى بصوت غير مسموع:

- فى إيه تانى؟

نظرت لقدمى وللسجاد الأحمر الغامق الذى فقد وبرته فى المواضع الأكثر استخدامًا.

فكرر ولكن بنبرة أعلى:

-فى إيه تانى؟

قلما كان يجلس والدى فى المنزل هكذا طوال النهار على مائدته. فعادةً كان يذهب إلى المكتب. فين بابا. فى المكتب. بابا خرج خلاص؟ نعم، ذهب إلى المكتب. بابا فى المكتب؟ نعم، أعتقدْ أنه فى المكتب. يبدو أنها أكثر كلمة سمعتها خلال طفولتى عندما كان الأمر يتعلق بوالدى: كلمة "مكتب".

وضعت الصينية بجانب الكتب. لماذا لا يتظاهر أنه يأكل؟ فكذلك نفعل فى الحدائق العامة عندمت نعّد على الحافة الخرسانية طبقاً من الأعشاب وأعقاب السجائر، وكذلك على الشاطئ، يتوجب على البالغين تذوق ما أعددناه. فذلك جزء من العقد العائلى، شأنه شأن محادثة الحيوانات والدميات المخملية أو القراءة قبل النوم. مما لا شك فيه أن والدى لم يكن على علم بهذا الأمر، أم إنه ينفر من هذا النوع من الطقوس وهو الذى اشتهر بحبه للهزل والتمثيل. ألم يسبق له التنكر فى زى سائق لاصطحاب أنطوان بلوندان من مركز الشرطة يوم الكريسماس؟ ولكن معى أنا، أنا ابنته، فالأمر مختلف. فأنا لا أُعتبر جزءًا من المجموعة. لست صبيًا، ولم يسبق أن لعبنا معاً فى نفس الفناء. كنت مصدر إزعاج فقط لا غير، يتوجب على إبعاد متعلقاتى، مثلما أخذ يكرر والتعب بادى عليه، فمتعلقاتى تضجر. ألم يحن وقت القيلولة، أين هى الفتاة الشابة؟

فى حينها، آتت سيلفى لتأخذنى، وقفت على عتبة

الباب، لم تجرؤ على الدخول، يبدو أنها تلقت أوامر بذلك. وإذا بوالدى يتلطف ويقول لسيلفى إن بإمكانها الدخول وإنه لن يتناول الطعام ثم أخذ يدى وزرع قبلة صغيرة على كفى. ضممت أصابعى. شعرت أنى أسعد فتاة صغيرة فى العالم.

عدة ساعات لاحقة، بعد القيلولة، عاد الطبق إلى مكانها فى المطبخ: أين ذهبت الوجبة اللعبة؟ كان باب حجرة الصالون مفتوحاً على مصرعيه ومقعد والدى شاغراً. تقدمت بحذر وكأنى أتوقع ظهوره من وراء الستائر. ولكن لا، ليست هذه خدعة من والدى، ليتها كانت. لقد اختفى، خرج، لقد قاطعت عمله، يا لى من فتاة سيئة، مصدر إزعاج أكثر من أى وقت مضى، إذا كان والدى لا يستطيع الكتابة، فأنا السبب. وبسببنا نحن ، نحن الأطفال، يقضى والدى حياته بعيدًا عن المنزل أو فى الغرفة الغامضة التى يحتلها فى الطابق الخامس.

وجدت الطبق البلاستيك فى سلته الورقية وسط المسودات وزجاجات البيرة، فيما ظلت البيضة على المائدة واستخدمت كطفاية. زُرعت سيجارة بزاوية مستقيمة فى الصفار محدثة تجويف فى البلاستيك المحترق.

علمت مؤخرًا أن والدى لم يكن مدخناً شرهاً.

بما أنى أصارع أحلامًا شديدة العنف، كتبت فى العام الماضى، قبل أن أمرض، لأخى غير الشقيق لأسأله عن الانطباعات التى احتفظ بها عن عودته إلى باريس- ليس عن عودته بعد الحادثة ولكن قبل ذلك، عندما ترك سان كيه بورتريوه. هل يحتفظ بذكريات مشادات أو مشاهد قد

أكون رأيتها وقد تفسر هذه الكوابيس التى تعاودنى. أحداث قد تكون محتها ذاكرتى. وكأن ما اختزنته مسبقًا -وهو ما أفكر فيه اليوم- ليس كافيًا لتبرير الصور التى تهاجمنى.

آثار رد هوج الاضطراب فى نفسى، وازداد شعورى بقربه إلى قلبى. فمنذ زيارتى للأروشال، لم نتحدث إلى بعضنا البعض. وذلك لأن الاعترافات المتأخرة تصطدم بحواجز صلبة من الصعب القضاء عليها فى حديث واحد. لقد استلزم الأمر حتى الآن المقاومة، فعلنا ما فى وسعنا، أغلقنا هذه النافذة التى تفضى إلى فراغ، وضعنا دعامات هنا، استتكرنا هناك حيث الضوء يسطع لدرجة تمنع الرؤية. ردًا على خطابى الذى تحدثت فيه عن الكوابيس، كتب أخى يقول إنه لم يشعر قط بالانتماء إلى عائلة، إلى أخوات، أنه لم يمر بلحظات قوية، بانفعالات من شأنها بلورة هذا الكيان، مثلما نشاهد فى المسلسلات التليفزيونية، بل تولد لديه إحساس بالتخدير. نعم، هذه هى الكلمة التى تراود ذهنه كلما أشار إلى هذه الحقبة: التخدير. يداعب خياله ذكرى التقائه السريع بأم وشريك لها، أو قل نوعًا من الأبطال محاطاً بهالة من المسافة التى تفصلنا عن الخرافة، ومن سخريته (وهى طريقة أخرى لفرض هذه المسافة). ولكن أيضًا وهذا هو ما لمسنى وطمأننى بعد كل هذه الأحلام التى يظهر فيها والدى بملامح متوعدة، متوعدة للغاية، أخذ هوج يتحدث عن الود الذى كنه له روجيه نيميه. لقد خصص له أوقاتاً حقيقية، علّمه لعب الورق، حثه على أرسين لوبين، وحدثه عن سيارات السباق. يتذكر هوج أيضًا صوت المياه فى

الحمام. فعندما كان يعود والدى من المكتب، أى من عند جاليمار أو من أى مكان آخر، لا أدرى، اعتاد أن يأخذ حمامًا.

أحزان؟ حتمًا. أضاف أخى الكبير أنها كانت دومًا فى الخفاء، أحزان تم خنقها تحت قطعة قطن قادرة على امتصاص الماء: ومنها، صورة والدتنا وهى تتجه منتحبة فى وسط الليل نحو الغرفة الأخيرة حيث أنام أنا ومارتان، الشتائم المتلفظة بغير وضوح وبصوت هامس لدرجة تجعلنا نتشكك فى سماعها، وإعلان وفاة أول أخ له، جييوم، مع أن الأمر يبدو بالنسبة له قديماً للغاية.

جييوم؟ نعم، فهو الطفل الذى عجل زواج والدى ما إن وصل إلى جسد والدتى، أو لتقديم الأحداث بشكل أقل سذاجة: حملت والدتى، تزوجها والدى ثم تركها على درج الإدارة البلدية لتدبر أمرها مع بطنها الكبيرة.

وُلد جييوم متأخرًا، كان ضخمًا وكان اختفاؤه المأساوى بعد يومين من ولادته سببًا فى إعادة والدى لرعاية والدتى المحتضرة.

عرفت مؤخرًا أن والدى فقد، هو أيضًا، أخ له توفى بنفس الطريقة عند الولادة. كان يكفى بلا شك أن تتحدث والدته عن ذلك الأمر إلى والدتى ليتم إنقاذ جييوم. كان لابد أن تتبع والدتى علاجاً خاصاً، أن تتابع حملها، وأخيرًا أن تأخذ بعين الاعتبار المخاطر الناتجة عن هذه الوراثة المقلقة. ولكن هنا أيضاً فرض الصمت قانونه الذى يفضى إلى الموت. بدايةً لا يجب الحديث عن جييوم، يجب الحديث أولاً عن الباقين على قيد الحياة. يجدر القول

بأنى، أو بأنا، أنا وشقيقى مارتان تربينا على فكرة أننا ثمار حب كبير. كانت هذه هى الكلمات التى تتكرر دومًا عندما تشير والدتى إلى الماضى. ثمارحبكبير. لم أدر سوى فى الخامسة والعشرين من عمرى أن والدى كانا يشرعان فى الطلاق وقت وقوع الحادثة. صديقة هى التى أخبرتنى بذلك. كانت والدتى قد طلبت الانفصال الجسدى وتم منحها إياه بلا مناقشة عند رؤية المستندات الملحقة بالملف. لقد تم تدوين فى جهة ما من سجل الشرطة، الآثار الزرقاء التى تركها على رقبتها، علاوة على محاولة الانتحار (وعن هذا أيضًا يجب أن تتحدثى، الأحداث تسرع) وبلا شك على أشياء أخرى لن أدرى شيئًا عنها مطلقًا. كانت والدتى تخاف من زوجها، وكانت ترغب فى حمايتنا منه. ألم يهدد أكثر من مرة وأمام شهود بخطفنا بحجة أنها لا ترعانا بصورة جيدة؟

وبهدف حمايتنا بلا شك، أعادت والدتنا بناء القصة وفقاً لما كانت تتمناه لأبنائها وأبعدتنا عن كل ما من شانه تحطيم صورة الزوجين المثاليين. لا أكن لها الضغينة. فأنا ابنة ذلك، ابنة أسطورة انتهت نهاية سيئة. لقد أحببت كونى هذه الفتاة الصغيرة نتاج الحب الكبير. والدتى تقول الحقيقة دومًا، أليس كذلك؟ هذه الوالدة التى وحدها اعتنت بشجاعة بأطفالها الثلاثة، فكيف لا يكون الأمر كذلك؟ كانت منتصبة ومشرقة. لقد أصبت إذاً بالهذيان. الصرخات، حكايات التليفون، الضربات والدموع: كل ذلك ما هو إلا هلوسة، هلوسة من تخيلى. ربما كان الأمر أفضل بهذه الطريقة. لننقل، وسأعود إلى ذلك، إنى اهتديت طريقى على هذا النحو. لم يكن والدى مخلوقًا

سهلاً بالتأكيد ولكنه قط لم يمس شعرة من أبنائه. شعرة؟ ربما ولكن ماذا عن الباقى؟ ماذا عن الأشياء الهشة التى تنشأ فى السنوات الأوَل؟ ماذا عن هذا الجسد المتعطش للحنان والذى يشب على أطراف أصابعه ليقدم له بيضة لعبة؟ فى أحد الكوابيس المتكررة أرى رجلاً مقنعاً يضمنى نحوه بكل ما استطاع من قوة. أقول إنه مقنع ولكن ذلك غير صحيح. فملامح وجهه ليست مستترة بل هى غير موجودة. ليست لديه حتى فتحة أنف أو فم ورغم ذلك فأنا التى لا أستطيع الصراخ فى الحلم. أحاول التلفظ بكلمات، أنهك رئتى ولكن لا صوت يصدر منى، ما باليد حيلة. فهذا الوجه أعرفه دون أن أستطيع وصفه. الشعور دوماً بالعظام التى تتفتت كالزجاج وبالهياكل التى تتصدع. الاستيقاظ دوماً بذعر. حتى جاءت تلك الليلة التى تمت الإشارة فيها إلى الرجل بحرفين كُتبا بخط كبير على واجهة محل، حرفان رُسما بوضوح على اللافتة. الـ و والـ ل وقد فصل بينهما خط صغير.

ماذا حدث فى حياتى حتى يتم فك غموض هذا الحلم؟ لم يعد الرجل الملقب يخيفنى. استطعت دخول المحل، مواجهة أجراس التنبيه الموضوعة على الباب وحتى تبادل بعض الجمل مع صاحب المكان الذى كان يشبه جيرار دوبارديو الذى ارتدى الأبيض لونًا. ربما يكون طبيبا.. نعم، بدا لى أن دوبارديو ارتدى قميصًا، وضع فى جيوبه حقناً، وأحاط رقبته بشىء، قد تكون سماعة أو عضوًا تناسليًا مفرط الطول (مثلما وصفته فى الرواية السابقة). ولكن لا، ليس عضوًا تناسليًا بل هو حبله السرى، حبل سرى طويل للغاية حتى أنه يضعه على كتفيه

وكأنه وشاح نُسج يدوياً من الصوف. كان محل الـ و والـ ل الذى اختارته العناية الإلهية يبيع البومات، إطارات الصور، إعلانات، ملصقات وجميع أنواع الأدوات المخصصة لعرض أو تصنيف الصور.

على حد علمى، لا توجد أية صورة لوالدى معنا، نحن الأبناء. ما من صورة زفاف أو عيد ميلاد. ما من صورة تعميد بما أنه تم تعميدنا. لا شىء على الإطلاق. قالت لى والدتى يوماً ما أن روجيه أحرق صندوق كان يضم الأرشيف العائلى. أيُعقل أن تكون هلوسة هذه المرة أيضاً؟ فبعد عشر سنوات من ذلك، عندما رحت أذكرها بهذه الواقعة أنكرت والدتى ذلك وأكدت أن شيئًا لم يدمر سواء بطريقة إرادية أو غير إرادية. كان والدى يكره أن يُصور، هذا هو كل ما فى الأمر.

يكره أن يُصور؟ كيف ذلك والعديد من صوره يتم تداولها: روجيه نيميه وقطته بعدسة كارتيه بريسون عند شارع بيرار، روجيه نيميه وهو مضجر ومتكىء على سيارة رولس بيضاء، روجيه نيميه وهو فى طور الشباب إما مرتديًا زى البحرية بقبعة أو بدون قبعة، وبقواطع أمامية حادة ونلاحظ فى هذه الصورة أنه ارتدى جوربًا فى صندل قدمه اليمنى بينما بقيت قدمه اليسرى حافية إما بالسروال القصير فى فناء مدرسة باستور الثانوية، روجيه نيميه بقبعة السائق، تلك القبعة التى ترمز إلى انخراطه الإرادى فى القضايا السياسية، كان صغير السن، شديد الجمال، روجيه نيميه ومكتبه، الآلة الكاتبة، التليفون، روجيه نيميه وفلان وعلان، روجيه نيميه مع أشخاص مشهورين من أمثال لويس جوفيه، جان مورو، إيريك فان

ستروهيم وهذه الممثلة الإيطالية الفاتنة، ماذا كانت تدعى؟ لا، لا نستطيع القول بأنه لم يكن يحب التصوير بإيجاز، يجب أن نكون أكثر تحديدًا، أن نوضح الحقيقة حتى ولو كانت مؤلمة. كان لا يحب أن يتصور مع أبنائه. هنا أيضًا كنا نُعتبر مصدر إزعاج، فظهور فارس الخيالة وقد تشبث صغاره -المرتدون ملابسهم- بحذائه الطويل سينجم عنه تناقض بَين وانطباع مزعج. تقص إحدى قريباته أنه أوقع فى يوم ما دون قصد بطاقته العائلية الكبيرة العدد وهو يُخرج تذكرة من محفظة نقوده، فأسرع بالتقاطها وقد احمر وجهه حرجًا. نحن سبب إحراجه. ويوجد أيضًا هذا الخطاب المرسل إلى جاك شاردون عاماً بعد ولادتى، حيث كتب والدى يقول: " فى الحياة لا أرى شيئاً مطلقاً سوى حماقة وجودى، انتقل من مكتب إلى حضانة وأنا مثقل بالعمل وبصرخات الأطفال وذلك دون أدنى أمل يحدونى أو تسلية تبهجنى".

ويمكننا أن نفسهم أنه لم يرغب أن يظهر "ذلك" فى الصور. "ذلك" : الصرخات، القماط، والالتزامات المالية. ويوجد أيضًا نص آخر مخيف عن الزواج، مكون من صفحتين مزدوجتين ضربتا على الآلة الكاتبة وهما من شدة قسوتهما يقومان فى ذاكرتى مقام جميع الأرائك المشقوقة فى العالم أجمع. يجب أن أجدهما. أعطتنى والدتى نسخة منهما منذ وقت طويل. كان هذا شجاعًا من ناحيتها. لقد استلزم الأمر منها محاولات عدة لكسر الصورة المثالية التى خططت لها خلال طفولتنا، ولكنى بلا شك لم أكن مهيأة آنذاك للحصول على هذا النوع من

الهدايا. إن الصمت عقد ضمنى، بند مقسَّم. فمن جهة، هناك من يسكت ومن أخرى هناك مع يغلق أذنيه. لا يكفى أن يقرر الأول أن يتحدث كى يسمعه الثانى. كانت والدتى قد أعطتنى النص المشار إليه بأعلى، بعد مرور أربع أو خمس سنوات على اتجاهى للكتابة، كنت قد نشرت بالفعل روايتين. بعد قراءته بتمعن، أتذكر أنى شرحت لوالدتى أنه لا يجب أخذ النص بمعناه الحرفى، وأن هذه الأسطر لا تعنيها، لا تعنينا إلا بطريقة ساخرة جدًا، أن هذه هى طبيعة الكُتَّاب، ينطلقون من واقعة حقيقية ويدفعونها إلى ذروتها، أن والدى جرفته الكلمات وأن الكلمات سريعًا ما تتخطى الفكر. كنت فخورة بالدرجة الكافية بذاتى وأنا أنطق هذا التشخيص وكأن من موقعى كروائية شابة أستطيع أن أفهم الأشياء التى لم تعِها والدتى عن أعمال زوجها. فى تلك الحقبة كنت ما زلت أفتقد بعض العناصر للتسليم بأن والدى كان بأكمله وراء كتابته.

أنزلت من الدولاب المكدس به صناديق الخطابات ملفًا برتقالى اللون من المفترض أن يضم جميع الأوراق الخاصة بروجيه نيميه. ولكن ما من أثر للنص الذى يتناول الزواج. فقط بضعة مقالات، إعلان خاص بترجمة رواية إلى اللغة الروسية، حيث سيتم طبع ١٠٠,٠٠٠ نسخة، وستصل حقوق الكاتب إلى ٢٠٠٠ فرنك يتقاسمها مع الناشر، لائحة المخطوطات والمراسلات المعارة إلى المكتبة القومية للندوة المخصصة لـ فارس الخيالة الأزرق»، وأخيراً نسخة من إهداء وجهه لصديقه جون نامور يعلن له من خلاله (خبر سار) أن جميع روائيى لانوفال ريفى فرانساز

(NRF) سيذهبون للجنة نظرًا لإبرام عقد بين جاستون جاليمار والقديس بطرس شخصيًا. أشعر أنى أبتعد. هذا هو ما ينتابنى كلما واجهت وثائق والدى، أشعر أنه لا يوجد ما أقصه، إنى لا أعرف شيئًا، أن هذه المحاولة غير مجدية وأن الأفضل العدول عن ذلك ومعاودة قراءاتى.

حاليًا، أعكف على قراءة حياتى لإيزادورا دونكان. ما الذى يستوقفنا عند هذه السيدة اللافتة للنظر؟ إنها كانت ترتدى وشاحًا طويلاً تلفه حول رقبتها. وشاح طويل اشتبك بعجلة سيارتها ذات السقف المتحرك على طريق لابروموناد ديزونجليه. وشاح طويل تسبب فى وفاتها. هل نتذكر فقط أنها كانت أما لثلاثة أبناء؟ إن اثنين منهما ماتا غرقاً؟ غرقًا فى سيارة ليموزين انقطعت فراملها بالقرب من شارع بوردون، ووقعت فى نهر السين دون أن يستطيع أحد إيقافها. أما الطفل الثالث فتوفى خلال ولادته. لم أكن أعلم كل ذلك يوم اشتريت كتاب إيزادورا. لقد أحببت اسمها الرنان ليس إلا، أعجبت بحرية هذه المرأة، بشجاعتها. فى الماضى، كانت تتجلى لى كمراهقة ترقص حافية القدمين على الشاطئ. أما الآن، فأتخيل السيارة الليموزين وهى تهوى رويدًا رويدًا فى السين والطفلين المحتجزين وهما يقرعان الزجاج. تطفو فقاعات على السطح، إنها صرخاتهم. كيف تودين أن تتعلمى القيادة بعد كل ذلك، بعد أن استحوذت جميع هذه المشاهد على تفكيرك، مشاهد من الواقع ومن جميع الخيالات التى نختلقها بطريقة حصرية. وعلى الرغم من ذلك، استأنفت منذ بداية الشهر دروس القيادة. لقد تغير مدربى، وهذا الجديد لا يقضم أظافره ولكن هاجسه

وشغله الشاغل هو التأكد من مرونة حزام الأمان الخاص بمقعده. يتحدث بصوت رخيم، يضع بعد الحلاقة عطراً تطيب له نفسى، ويكرر لى للمرة الثالثة أن ليس هناك ضرورة فى الإبطاء كثيرًا قبل بدء دوران. حافلة هى المنطقة بالميادين. ومن ثم أواجه صعوبة بالغة فيها. تصل المعلومة إلى خصرى لا إلى ساقى. تقول عيناى: يجب المرور بما أنه لا يوجد أحد ولكن قدمىّ تتعنت. لن أستطيع أبدًا القيادة. لا، سأستطيع القيادة، أستطيع القيادة. إنها فقط مسألة تطبيق، مسألة تدريب. ففى الربيع الماضى، فيما كنت التحقت لتوى بمدرسة تعليم القيادة، هوت سيارة شرطة فى النهر الذى ينساب بجانب منزلى، كانت مندفعة للغاية فتخطت المنعطف وسقطت. تم تعليق إكليل من الزهور على السور الجديد. يمر الولدان بجانبه كل يوم فى طريقهما إلى المدرسة حيث يتوجب عليهما عبور الكوبرى. مات الشرطى غرقًا حيث لم ينجح زملاؤه فى إخراجه فى الوقت المناسب من السيارة. من نافذة منزلى، رأيتهم يحاولون إنعاشه. نزلت سريعة، سريعة جدًا لأرى ما يمكننى عمله، ولكن طُلب منى الابتعاد. وفى هذه الحالة أيضًا فلن نعلم مطلقاً إن كان السائق فى حالة سكر ولا السبب وراء قيادته بهذه السرعة. لم يكن يتعقب أحدًا، وكان يعرف هذا الطريق الذى كان يجتازه فى الكثير من الأحيان. أفكر من جديد فى والدى. أفكر فى سانسياريه. أفكر فى طفلى إيزادورا. أفكر فى خالى، شقيق والدتى الذى قُتل هو الآخر فى ريعان شبابه على عجلة القيادة. ابنته، ابنة خالى، كان

عمرها ثمانية عشر شهرًا. كابوس. دائمًا نفس الكابوس. الشعور بأنى أدور فى حلقة. الشعور بالرغبة فى التوقف عن كل شىء: الكتاب، دروس القيادة، الرغبة فى إقصاء كل شىء، صرير الريشة، المخاوف الطفولية، الشفرات الصلبة على المعاصم الهشة، الرغبة فى أخذ أجازة، حذاء تزلج من اللباد، أرضية مدهونة بالشمع وانزلاق صامت. ما من خبايا. ما من سؤال. ما من جذر. ما من مثبتات. فقط وحتمًا الثلج وهو يذوب. نتخيل أن القصة تتلاشى مثل خطوط وآثار القَطْر عند مرور مسطرة صغيرة على الاردواز السحرى. وقد نعتقد أن من الممكن تواجد الحياة الآن، بهدوء. يتغير الشكل ويتحرر الجسد من الجاذبية. تراودنى صور بائعات اللبن فى هولندا وهن يسلمن بضاعتهن متزلجات وحاملات دلوين معلقين على خشبة وُضعت على أكتافهن، اللبن على الجليد، الأبيض على الأبيض.

هذا الصباح، ذهب الولدان إلى المدرسة وارتديا معطفيهما. سيشعران حتماً بحر شديد. سننهى هذا المساء مغامرات بينوكيو.

دائماً ما يتم سؤالى عن وجهة نظرى بصراحة فى مسألة الوراثة، إجمالاً عن وجود جينات لذلك، جينات للكتابة. كل عام، نفس القصة. فملف النسب يفرض نفسه بشكل موسمى، شأنه شأن ريجيمات التخسيس أو رواتب الكوادر.

نحن فى الطابق الأول لمقهى قريب من محطة سان لازار. هو: قميص رياضى يتراوح لونه بين الأصفر والبنى،

غـرة قـصـيـرة، بنطلون جـينز بأزرار. المهنة: صـحـفى. السترة؟ لا يوجد سترة، بل بلوفر بحرى من الصوف معقود على خصـره. أنا: حذاء بلا كـعب عـال، تنورة سـوداء، ياقة عـالية ملتفة. كنت منتبهة حتى لا يفوتنى القطار القـادم، يجب أن أعـود إلـى نورمـاندى لاصطحـاب الأطفـال من المدرسة. أما هو، فإعجاب كبير بروجيه نيميه وأما أنا، فضحكة مهذبة. وضع على المائدة جهاز تسجيل صغير تابعه بقلق بالغ. كان صوته الرخيم يحرك بالكاد المؤشر الأحمر. وبدأت الأسئلة. هل أعزف دائمًا على الأوكورديون الثنائى النغمة، هل أكتب باليد، فى الصباح، بعد الظهر، فـى المســاء، هـل عنـدى تمائم، عــادات (هل أشــرب، هل أدخن، هل أتناول وجبات خفيفة) و أسئلة أخرى لا عـلاقة واضحة لها بالموضوع الذى يجمعنا، ثم انتقلنا إلى الوجبة الرئيسية، فالأسئلة السابقة لم تكن سوى وسيلة لإقامة الاتصال، مشهيات، بلا شك. سألنى عن الذكريات التى احتفظ بها عن والدى. غير قادرة أنا على الإجابة على هذا النوع من الأسئلة. وحتى لو أجبت عليها فإنى أفعل ذلك من مكان مـرتفع، وكـأنى واقـفـة على عكاز بهلوان. أتحدث عن هاتين الصورتين اللتين تطابقان فى ذاكرتى وكأنهما خطأ مطبعى يستحيل معهما القراءة: من جهة، الصورة العامة لأديب، التى تندد باختفائه المبكر والأخرى، الإحساس الخاص، إحساس فتاة صغيرة لا تزال لا تعى ما يحدث حولها.

يود الصحفى أن أستفيض. أقول نفس الفكرة بكلمات أخرى. وإذا بوجهه يشرق: من ناحية الحياة العائلية ومن الأخرى صداقته مع الرجال وتلاعباته. تُرى كيف يمكن الجمع بين هاتين الصورتين؟

وللإجـابة، جـاء النادل ليـقـبض الحـسـاب. لقـد أنهى خدمته. كرر الصحفى بصوت هامس: القبض.

لمن يوجـه حـديثـه؟ القـبض. نعم. هذه هـى الكلمـة المناسـبـة، ليست المسـألة أن نجـمع بين ولكن أن نقـبِّض. أجـد صعـوبة فى التـركـيـز على الأسئلة التـالية. تتشـبث نظرتى بأى عـذر للهـرب. هـذه المرأة، فى الخلف، التى تصلح مـاكياجها وتضغط بشدة على جـانبى أنفها وكـأنها تريد إخفـاءه. وتلك، هناك فى المؤخرة، التى تقـرأ طالعها وهذه الثالثة التى بدت وهى ترتشف شـرابها الأبيض كأنها تستنشقه.

- هل تشـعـرين بالحنين للفـتـرة التى عـاشـهـا والدك؟ لهذه الحقبة؟

- لا، ليس حنينًا، أو قل أنـى أشـعـر بالحنين لماضـى لم يسـبق لـه الوجـود. يشـيـر سكان جاليسـيا إلـى هذه الحـالة باسم morrinaأو الاشتياق، سـأتحدث عن الاشـتيـاق ولكن صوتاً آتياً من الشارع يقطع كلامى:

-قاتل،قاتل، قاتل!.

رجلٌ هو الذى يصـرخ. يشـدد على المقـطع الأول وكـأنه يروج لبـضـاعـة مـا. أرانى مـرة أخـرى فى نافـذة الشـقـة العـائلية، ألقى إلى عـازف البيـانولا عـملات نقدية لففـتهـا فى ورقـة مـزقـتـهـا بعجلة من كراس المسودات. كان القـرد المقيد بالآلة الموسـيقـية بسلسلة صـغـيـرة يصـفق فى نهـاية المقاطع. أما سلته، فتم فرشـها بقماش منقوش بالورود بدا من أعلى مشابهاً لقماش لحافى. كم أحب أن أقتنى حيوانًا

صغيرًا في المنزل. منذ وفاة الهمستر الذى سقط من الطابق الرابع، تؤجل والدتى دائمًا لحظة اصطحابى إلى السوق لشراء واحد آخر. كان يدعى "أونفان". كان لدى صديقتى المفضلة أخواه "براف" و"باسون" . قلبت وفاته حياتى. على الأرجح هوج هو الذى ترك باب الردهة مفتوحًا. ولكن لماذا لم يكن أونفان فى قفصه؟ لا أعلم. تدفق الدم من فمه مكوناً بركة حمراء بدت وكأنها قماش مخملى غريب أو شريط من الأشرطة التى يتم لصقها على علب المجوهرات التى نهديها فى عيد الأم.

قاتل، قاتل! أعاد النادل باقى النقود وألقى نظرة إلى الشارع ثم أوضح:

–ده المجنون. طبيعى إنه يمر بدرى شوية.

يعتبر المجنون جزءًا لا يتجزأ من المشهد، فهو يتمتع بقدر كبير من الوضوح. اضطرب الصحفى. يبدو أن خصلة من شعره كانت تتسدل على عينيه، لأنه كان يمرر من آن إلى آخر يده فى شعره أو يميل رأسه جانبًا فى حركة مرنة، ربما يكون معناها "هلا مضينا فى الحديث؟". ولكنا لا نمضى إلى أى مكان، نظل هنا، جالسين إزاء بعض. لم يعد يدرى ما الأسئلة التى يريد طرحها على: بحركة صغيرة من رأسه رفع الخصلة الشبح وسيطر من جديد على الوضع. سألنى عن والدتى، عن طفولتى، تخيلنى محاطة بأصدقاء والدى منحنيين على كتفى مثل الأعمام العطوفين. آثار غيابهم جميعًا باستثناء شخص واحد دهشته، لم يفهم لما لم يكن هؤلاء الذين تعلقوا بروجيه أكثر قرباً منا، نحن أطفاله. شعرت وكأنه ينظر

إلى للمرة الأولى وإذا به يغير الموضوع ليقول لى أن عينَى تبدوان بزرقة غريبة تحت هذه الإضاءة.

أصر على أنه نادرًا ما رأى عينين، لا أدرى كيف أصيغ ذلك، زرقاوين بهذه الدرجة.

أخفضت جفنى. انتهت الملاحظة واستعاد هو نبرته الحرفية. استطرد أسئلته وهو متفادٍ التقاء نظراتنا:

- هل عندك على المكتب شىء كان يمتلكه؟

أخذت أتحدث عن قلمه الحبر الموضوع فى درجى، لا، لا أستخدمه، فالريشة معوجة، نعم، تتجه نحو اليمين، بالضرورة إلى اليمين. دوّن الصحفى ذلك والبسمة تعلو وجهه ثم أعلن انتهاء الاختبار. قال لى إنهِ وجد إجاباتى فريدة، أنه سُعد بمقابلتى وأنه يأمل أن تسنح لنا الفرصة فى الالتقاء مرة أخرى. ثم أضاف أنه يعد بالضبط ملفًا حول الروائيين الذين يكتبون أغانٍ، وأنه يحب أن يعرف رأيى فى هذا الموضوع. وبينما راح يرتب جهاز تسجيله، بحث فى حقيبته عن شىء ما: نسخة من رواية دومينو لأكتب عليها إهداء لأخته الشغوفة بالقراءة. قال لى اسمها الأول: كلير، نعم، كلير فقط، و أكد أن ذلك سيكون من دواعى سرورها. غريبة هى عادة إهداء الكتب إلى غرباء، أشخاص لا نعرفهم ولكننا نناديهم باسمهم الأول، وكأن المشاركة فى نص واحد يسمح لنا بتخطى المراحل وبالانتقال مباشرة إلى عالم عائلى أو ربما بالعودة إلى الطريقة الطفولية، إلا إذا كان الأمر يتعلق بإجراء وقائى طبيعى بما أن هناك ألقابًا يصعب كتابتها. ن نعم أتهجى ن مثل نادين، ثم ى ثم م مثل مارى. كم مرة كررت ذلك فى الفصل المدرسى، على الهاتف أو عند الطبيب.

آه نيميه مثل الكاتب؟ أو هل أنت قريبة الكاتب؟ أو أيضًا هل تربطك صلة ما بالكاتب؟ نعم، تربطنى صلة بالكاتب، هذا أقل ما يمكن أن يقال. أعتقد دومًا أنهم يتحدثون عن والدى، ولكن فى العديد من المرات أجدهم يتحدثون عنى، يسألوننى لو كنت أعرف مارى نيميه. حقًا يا له من سؤال غريب يثير الاضطراب فى نفسى.

رافقنى الصحفى إلى المحطة. صعد السلم الكهربائى، ثم، أتى معى حتى الرصيف وكأنه أمر مسلم به. نستطيع القول إنه وجد صعوبة فى تركى، دوّن عنوانى البريدى ليرسل لى نسخة من الجريدة. انتظر قيام القطار ولوح إلى بإشارة من يده. كم لمستنى حركته، نظرت إلينا السيدة الشابة الجالسة إزائى وهى مبتسمة، إنها تعتقد بلا شك أنى محظوظة. ليتنى أمضيت وقتًا أطول قليلا فى باريس، فبإمكان الأطفال العودة بمفردهم من المدرسة، لقد كبروا الآن بالقدر الكافى.

تمر الأسابيع، أفكر فى الصحفى، فى كتابة الأغانى، أدون بضع أفكار فى الهامش عن هذا الموضوع حتى لا أفاجأ إذا حدثنى على الهاتف. إلا أنه لم يتحدث ولم أحصل على المجلة. ذهبت لابتياعها من القرية. على الغلاف، تمت الإشارة إلى المقال وإلى أسمائنا ووجوهنا التى وضعت بغرابة بداخل إطارات ذهبية. كانت مجموعة البورتريهات مدهشة، وكان من المستحيل أن نمنع أنفسنا من البحث عن أوجه التشابه بين الأجيال.

لاحظ بائع الجرائد أنهم يتحدثون عنى، لم يكن يعلم أن والدى كاتب. فتنهد قائلاً: بذلك يكون هناك العديد من الكُتّاب فى العائلة. لا يبدو أنه وجد ذلك ممتعًا. سألته عن سر هذا التبرم، فتعجب قائلاً:

-أى تبرم؟

-عندما قلت لى إن فى العائلة العديد من الكُتّاب...

إنه يعتقد أن ذلك أمر مرهق ليس إلا. تُرى هل هو مخطئ؟

يشغل المقال قرابة ست صفحات مزودة بالصور. من أين تأتى لهم العثور على صورتى هذه؟ فى يدى شىء ما، خشخيشة، لا، ليست خشخيشة. انظرى جيدًا. إنها سيارة تضعينها فى فمك وكأنك تتوقين إلى ابتلاع وسيلة الحادث بطريقة وقائية. كنتُ بالكاد فى الثانية من العمر، وكنت قصيرة الشعر، مرتدية جوربًا طفولياً. التقطت الصورة بالأبيض و الأسود بمكتب والدى بشارع سيباستيان بوتان. نراه فيها ممسكًا بمخطوط، يبدو أنه يملى محتواه على الشخص الذى ينظر إليه، الا وهو أنا بالنظر إلى التصوير المتداخل. ولكنى أجهل الكتابة، أنا غير ذات نفع بالنسبة له. أفكر من جديد فى البيضة البلاستيكية وعقب السيجارة المغروز بداخلها. من جديد هذا الشعور بإزعاجه، هذا الشعور بعدم التواجد فى المكان المناسب رغم نيتى الصادقة، وخاصة بعدم كونى على المستوى المطلوب.

لم يكن النص مكتظًا بل محددًا بأسماء كُتبت بالخط العريض. كما فى اللائحة الطويلة، تم تقديم الثنائيات فريديريك دار وابنه باتريس، كلود وفرانسوا مورياك، دوما الأب ودوما الابن، توماس وكلوس، فلورانس وجون، باسكال وألكسندر، برتران وجولى، يان ابن هنرى وجون فيليب ابن إيفون. من لقائنا فى المقهى، احتفظ الصحفى بقصة القلم الملتوية ريشته واستوحى منها جملة شديدة الروحانية.

تحدث بألفاظ رقيقة عن الصورتين الأبويتين اللتين تطابقان، أعاز إلى أصولنا البريطانية لون عينى وتساءل إن كان لروجيه نيميه نظرة بهذه الدرجة من الوضوح. قص أخيرًا كيف تم مقاطعة لقائنا من قبل الرجل الذى كان يصرخ فى الشارع قاتل، قاتل واستطاع من خلال هذا الانتقال البارع تناول الثنائى التالى: مارى هيجنز كلارك التى أعطت الشعلة لابنتها كارول أثناء حياتها، بل وكتبت روايتين معها دفعتها بهما إلى قمة المبيعات. وأعلنت بفخر للصحافة قائلة: "ابنتى ستعقبنى". يا لازدهار المؤسسة العائلية. أقرأ سريعاً البقية بلا شغف. تم تكرار خاتمة المقال فى مربع فى وسط الصفحة الأخيرة: " ليست الموهبة حتمًا وراثية". لقاؤنا العام القادم لمعرفة ما تخفيه الحروف المائلة.

فى الأسبوع التالى، فى مبنى الإذاعة، شاركتُ فى مائدة مستديرة لم يتحدث خلالها جميع الحاضرين سوى عن موضوع واحد، وكأن هناك اتفاقًا بينهم. آه، أنت مارى نيميه، لقد كنت على معرفة وثيقة بوالدك (غرابة هى التى تميز من اتخذهم والدى أصدقاءً له) كان رجلاً ذات درجة عالية من، لا أعرف، كان شديدًا ...حتى أنى رأيته يوم الحادث (كبير هو عدد الأشخاص الذين قابلهم والدى يوم الحادثة)، كنا جميعًا شديدى...

أبتسم وأنا بادى على الأسف. لم يكن ذلك تصنعًا من جانبى، ولكنى شعرت بالفعل "بفراغ موحش" شأنى شأن المشاهد الطبيعية، شعرت أنى مهجورة. رغبت أن أجذب نفسى من يدى وألوذ بالفرار. طُلب منى الانتظار قليلاً فى الاستديو فتسجيل البرنامج سيتأخر قليلاً، وتم سؤالى

عـمـا أريد شـرابه، شـاى؟ قـهـوة؟ باللبن؟ السكر؟ أرانى جالسة أمام مجموعة من الكتب فى معرض الكتاب ببوردو الذى اصطحـبنـى فـرانك إليـه. مـرت أمـامنا امـرأتان تهمسان: "إنها ابنة الكاتب"، قطبت صديقتها حاجبيها وهى تتساءل: "أى كـاتب؟"، فـعـاودت الصـديقـة الدائمـة حـديثـهـا، وهى امـرأة أحـرقت الشـمس جلدها واصطفت عدة أساور فى يدها:" بل تعـرفينه، صاحب فارس الخيالة الأرق". اسـتـدرت نحـو فـرانك للخـلاص من تعليـقـات السـيـدتين وتعلقت بابتـسـامـتـه. كنت واثقـة من أنهـمـا ستنظران إلى الملصق المعلق فوقى والتى أبدو فيه أجمل من الحقيقة، وستترنح نظراتهما ذهابًا وإياباً بين الصورة وبين وجـهى كـمـا فـى الجـرائد والمجـلات المخـصـصـة للسيدات التى تعرض صورهن قبل/بعد، كنت واثقة أيضًا من أنهـمـا سـتـأخذان إحـدى رواياتى وسـتـتصـفحـانهـا بل وستقرآن الغلاف الخلفى انتظارًا أن أستدير لهما ولكن لا، لم أسـتـدر. رحت أسـمـعـهـمـا يتـمـمـان حـوارهمـا دون أن يعيرانى اهتمامًا.

- لقـد ذهبت إلى دار النشـر بيفو، نعم لقـد رأيتهـا عند بيفو العام الماضى، كانت تصفف شعرها بطريقة أخرى، كانت مناسبة لها تلك التسريحة، ألا تذكرين؟ كانت ترتدى جيليه أزرق.

- آه، نعم، عندك حق، بلوفر أزرق سماوى بسوستة.

- سوستة، أواثقة أنت؟ ألم تكن كباسين؟

أما عن مـا قلته خلال البرنـامج فـلا عـلاقـة لهـمـا به. راحتا تقلبان أكثر فى الكتب لجذب انتباهى ثم ابتعدتا بعد

أن خاب أملهما فى تبادل بعض الكلمات مع ابنة الكاتب التى انتقلت إلى بيفو. سارتا وهما تأرجحان ذراعيهما ببطء. كرهت نفسى قليلاً لعدم قدرتى على التحدث إليهما.

عادتا بعد ساعة، وقد قررتا شراء إحدى رواياتى لتقديمها إلى صديقة بمناسبة عيد ميلادها. وقّعت لهما نسخة من الملاطفة من مجموعة بلانش. لفت فرانك انتباهى إلى أننى كنت لطيفة بوجه خاص مع كلتيهما.

سؤال آخر يتكرر دومًا منذ نشر أولى رواياتى. ذهلتُ من أن الصحفى لم يطرحه على. يتم سؤالى دائماً عن سبب عدم اتخاذى اسمًا مستعارًا وإذا كنت قد فكرت فى الأمر. إجابتى واضحة: لما أوقع باسم غير اسمى؟

يجدوننى متغطرسة.

استخدمت مرة واحدة فقط اسمًا مستعارًا، ليس هناك ما يستوجب إذاعة الخبر على الملأ، ولكن بما أننا أثرنا هذا الموضوع فسأشير إليه. وتزوجت كذلك مرة واحدة فقط فى بروكلين زواجًا على ورق بشاب لم أره منذ حينها مع إمكانية احتفاظى بحقى فى حمل اسمه (اسم رائع الجمال). كنت أعمل آنذاك فى فرقة مسرحية بنيويورك وكانت هذه هى الوسيلة الوحيدة للحصول على تصريح إقامة، فضلاً عن ذلك، فإنها مكنتنى فى نفس الوقت من إعادة كتابة تجربة والدتى مع الحرص على قلب الموقف لصالحنا، بما أن العروس هى التى تركت هذه المرة زوجها الشاب على سلالم مبنى الإدارة البلدية ولحقت بحبيبها فى ورشة بالقرب من تايمز سكوير لقضاء ليلة دخلة لا يمكن نسيانها. أما فيما يخص الاسم المستعار

فلقد وقعت باسم باسكال مارتان تحقيقًا لجريدة كو شوازير حول مراكز التجميل. كان عمرى اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين عامًا، ولم يتم سؤالى عن خبرتى السابقة ولا إن كنت مؤهلة لهذا النوع من الأعمال. كنت ممثلة مبتدئة فى تلك الفترة وهذه الصفة هى التى تم تقديرها من جهتهم: هذه القدرة على لعب الأدوار، على التكرار. تكبدت بلا تذمر، خلال شهر ونصف، عشرات حمامات تنظيف البشرة ، حمامات زُينت ببضع جلسات لتسمير البشرة وجلستين كاملتين لإزالة الشعر، سوف أعطيكِ لاحقًا التفاصيل. لقد خرجت مجلوة ولكن شديدة الفخر عندما رأيت مقالى مطبوعًا.

ماذا كان سيحدث لو كان اسمى الحقيقى باسكال، باسكال مارتان؟ هل نكتب بطريقة مختلفة عندما يكون اسمنا اسماً شائعاً؟ اسماً شديد الانتشار؟ جميعنا يعلم أشخاصًا يحملون هذا الاسم، مارتان، والسبب: تم إحصاء أكثر من ٣٠٠٠ فى دليل مدينة باريس فقط. أدعوك لإجراء بحث على الإنترنت، ما عليك إلا إدخال الاسم والمدينة وستظهر إشارة تخطرك بتوخى الحذر، إشارة الخطر المثلثة وكأنك انتهكت قاعدة أساسية فى الإبحار، ثم يظهر لك عدد النتائج ٣١٠٦ بالإملاء الصحيح وهو ما يتخطى الحاجز المصرح به.

يُقترح عليك أن تحدد طلبك.

تحدد طلبك.

يبلغ عدد من يحملون اسم مارتان ١٨٤ وذلك فى التقسيم الثانى عشر بباريس ودون الأخذ فى الاعتبار من

لا يملكون هواتف ومن تم إدراجهم على اللائحة الحمراء. وفـقًـا للمـعـهـد القـومى للإحـصـائيـات والدراسـات الاقـتـصـادية- إنك تضجـرينا بإحـصـائيـاتك- يولد فى المتوسط فى فـرنسـا ٢٨٤٩ مـارتـان كل عـام. هل تتـخـيل مدينة بأكملها يسكنها من يحملون اسم مارتان. جحيم هو هذا الأمر بالنسبة لسعاة البريد. آه، نعم، باسكال مارتان، أتعلمون ابنة روجيه نيميه (لأن هذا هو المبدأ، اتخاذ اسم مستعار هو فى حقيقة الأمر إجبار الآخرين على اكتشاف النسب). كـان باسـتطـاعـتى لا مـحـالة اختـيـار اسم أقل انتشارًا، ولكنه لم يكن ليغير شيئاً، كان سيظل يلازمنى الشعور بالتـقـدم وأنا مقنعة، متنكرة، الشعور باستخدام ذريعة للحصول على حق الكتابة. وعلى ذلك، تظل مسألة الوراثة وثيقة الصلة بالموضوع سواء استخدم الكاتب اسماً مستعاراً أو لم يستخدمه. هل يعيش من يضع كلماته فى كلمـات قـريب له مـشـهـور فى ظل هذا الأخـيـر أم تحت ضوئه؟ تحت لعنته أم تحت مباركته؟ هناك نوع من الريبة فى مكانه، كل شىء من المفترض أن يكون سهلاً بالنسبة له. فنصوصه يتم إملاؤها عليه من أعلى، لقد ولد بقلم من ذهب فى فمه كما ولد آخرون بملعقة من فضة.

من بين الأدوات النادرة التى تركها والدى، يوجد واحدة أحبها بشكل خاص. إنها ساعة جيب تدق متى ضغطنا على زر تعبئتها. ليتنى تحدثت عنها مع الصحفى. كان صوت جرسها جميلاً، رخيمًا وواضحًا فى آن واحد مثل صوت المرأة التى لا يعيبها شىء. كانت تشير إلى رأس كل

ساعة، كل نصف ساعة وحتى كل ربع ساعة. متى جعلتها تدق، تذكرت هذا الجد الذى لم أعرفه.

أتذكر بول نيميه، بول صانع الساعات، والد والدى. توفى عندما كان ابنه فى الرابعة عشرة من عمره، لقد تحققت من ذلك، ولكن ليس نتيجة أزمة قلبية مثلما ألمح روجيه، محاولاً بذلك إسقاط اضطراباته على سلفه، ولكن من ارتفاع البولينا فى الدم وهو مرض بلا شك أقل جمالاً وعلى المستوى الرمزى أقل جاذبية. فالقلب ينفعل وهذا كتاب يكتب. ولكن ماذا سيقال عن نظام تبول خائر القوى. هناك أعضاء لا يحبذ الإشارة إليها فى الأدب وتعد الكلى منها، فهى لا توحى بالكثير. يا لبول المسكين ، ففى خلال ثمانية أيام قضى عليه المرض. كان مهندسًا عند بريليه فى لوفالوا-بيريه. إنه هو الذى ابتكر أول ساعة ناطقة. فخورة أنا أشد الفخر بذلك، فلا أضيع أية فرصة إلا ونشرت الخبر. فى الرابع عشر من فبراير ١٩٣٣، تم افتتاح الاختراع الجديد ومنذ اللحظة الأولى لتشغيله كان النجاح مدويًا. بتصنيع أوديون ٨٤٠٠، أصبح الوقت محددًا أكثر من ذى قبل وبتنا على يقين منه. فبدءًا من الصباح وحتى المساء تدور الأسطوانات لتنشر إلى من يود سماعها الشريط السمعى لأطول فيلم على الإطلاق. تم تسجيل الصوت من قبل مارسيل لابورت الذى اشتهر عند المستمعين تحت اسم السيد راديولو وكان فى ذلك الوقت مذيعًا بالراديو. هو أيضًا لديه حتمًا العديد من الأبناء والأحفاد وأتساءل إن كانوا يقصون اليوم مفاخر جدهم. تم استبدال صوته عام ١٩٦٥ بصوت عامل بريد مجهول.

كانت جدتى، كريستيان روسيل، زوجة المهندس، والدة روجيه نيميه، عازفة كمان. حصلت فى العام الذى أتمت فيه خمسة عشر عامًا على الجائزة الأولى لكونسرفاتوار باريس. توقفت عن الموسيقى عقب زواجها. كان عليها الاهتمام بزوجها، بالأطفال التى سترزق بهم وببيتها. لا يمكن أن ننسى أن والدى وُلد من هذا أيضًا، من هذا التوقف. لم يتحدث قط عن ذلك على حد علمى رغبةً منه فى ألا يتذكر منها سوى نضوجها المبكر الجميل وجانبها الفنى. يبدو أن توقفها عن ممارسة فنها للانصياع للقواعد السارية فى مجتمعها لم يزعجها كثيراً. على الأقل، الحزن لم يعرف جيلاً. لكم أحببت أن أستمع لعزفها. بالأمس ذهبنا لسماع سوناتة لبراهمز فى مولان دانديه، وتخيلت لو أن جدتى جلست مكان عازفة الكمان. كانت سيدة جذابة ويقظة أو لاستخدام الكلمة البالية التى تناسبها تمامًا امرأة رهيفة. كنا نحب الذهاب إليها، أنا ومارتان. كانت دائمًا تعد نفس الغذاء، وفى كل مرة كانت تجتاحنا اللذة ذاتها، لذة اشتمام الدجاج والبطاطس المحمرة بمجرد وصولنا إلى الردهة. أحيانًا كان أبناء عمتى، أولاد مارى روز الشقيقة العزيزة لوالدى (والتى كان يلقبها بميمى) يأتون للانضمام إلينا. كنا نجدهم كبارًا فى السن، عالين الذوق فى الملبس. كانوا يبهروننا. كنا نجذب القطع الإضافية الملحقة بالمائدة ونأخذ حذرنا. كانت هناك باقة ورد على المائدة المنخفضة وأسفل الزهرية مفرش صغير من الدانتيلا، وأسفل هذا المفرش الصغير تم وضع حلقة صغيرة من البلاستيك لحماية الخشب. فى عالم طفولتى المبكرة المترنح، كانت مامى باريس- هكذا

كنا نلقبها- تمثل الاستمرار والاستقرار. كانت بشرتها تسحرنى بكل ما فيها: التجاعيد الدقيقة للغاية، النمش، وجديلة شعرها المرنة التى روضت خصلاتها بمشابك شعر رقيقة رقة خارقة. فى فترة لاحقة، عندما كبرنا قليلاً، انقلبت هذه الطقوس باتفاق عام. لم تعد تدعونا فى منزلها يوم الخميس بل فى مطعم لاميزون دو لابريطانى. كنا نطلب آيس كريم كبير الحجم قبل أن نذهب إلى السينما فى إحدى هذه الصالات الشاسعة بالشانزيليزيه التى ستظل بالنسبة لى مرتبطة بمشاهدة -أثقلها بطريقة مقبولة الآيس كريم- لويس دو فيناس الذى كان سيجعلنى على الأحرى حزينة لولا أن المحيطين بى قرروا أنه مثير للضحك. كانت جدتى تراقبنا بعد الإشارات الهزلية لترى إن كنا نضحك ولتشارك أحفادها لذة رؤيتهم سعداء. كان كثيرًا ما يروق لشقيقى ما يشاهد، أما أنا فكنت أتكلف قليلاً. عند ظهور سيف أو مسدس على الشاشة، كانت تأخذ جدتى بيدى وتضغط عليها بقوة. فأنا لا أحب المشاجرات وهى كانت تعلم ذلك. لا أحب كذلك الأشخاص الذين يصرخون فى الأفلام، هؤلاء الذين يتحدثون بصوت عال. هذا النوع من المشاهد أفضل نسيانه. لا أتذكر قط أن جدتنا حدثتنا ولو بطريقة عابرة عن ابنها، أبينا.

وعودةً إلى فكرة الاستمرار، أعتقد أن صوت الساعة الناطقة لعب دورًا مماثلاً فى حياتى للدجاج والبطاطس المقلية. شعرت دائماً بقرب شديد من هذا الرجل الذى يعرف بالضبط ما يقول بل ويقوله عاليًا. ليس هناك مجال للتأويل أو الكذب أو المماطلة. فالأمر سيان سواء تطلبه من أفينيون أو من سانت إتيان. يمكننا الاعتماد

عليه والوثوق بكلامه. إنه ليس من الرجال الذين يقرعون الباب فى شدة ظلمة الليل. كنت أحفظ عن ظهر قلب رقمه وأطلبه من وراء السيدة الشابة التى كانت ترعانا، متى تملكنى الملل فى المنزل. ما أصفه "بالملل" هو أقرب إلى الخوف. خوف أصم كان يشل حركتى دون أن أستطيع حتى أن أروضه بكلمات أكثر تشويقاً من مرور الساعات والدقائق. بالنسبة لملكة الصمت، أهناك ما هو أروع من ساعة تتحدث؟ كنت أعد الإشارات الصوتية وفى الرابعة أتخيل الإسطوانة وهى تدور. كان الوقت يمر ولكن كل شىء يظل على ما هو عليه. النبرة، المسافة بين المقاطع، وحتى الصدى الخفى الذى يعقب ذكر الثوانى.

يبدو أن الساعة الناطقة الإلكترونية تقدم اليوم بالتعاقب صوت امرأة وصوت رجل. يكفى أن أطلب رقم ٣٦٩٩ للتأكد، ولكن شيئًا ما يمنعنى. لا أحب تخيل جدتى وهى تعد الساعات إلى جانب زوجها، تخيل جدتى وهى تقوم بدور منظم سرعة الحركة الموسيقية. أفكر فى جملة أنتوان بلوندان التى وجهها إلى والدى فى السيد سالفًا، حيث كتب يقول: إن والدتينا وهما خالدتان ستأتيان لكى تعزفا لنا الموسيقى فى الشتاء القارس. والدتك ستعزف الأوكورديون ووالدتى الكمان. ومن الصعب ألا نشعر بالسعادة.

يمنع، يتم منع، كلمتان مشتقتان فى اللغة الفرنسية من الكلمة اللاتينية المستخدمة فى العصورالوسطى im-pedicare بمعنى يقع فى كمين، أو يعيق، وهى مشتقة من pes, pedis أى القدم.

إلا أن هذا لا يمنع، أو بإيجاز لا يمنع.

لا يمنع أن هذه المرأة الرهيفة التى كان والدى يدعوها "ماما"، هذه المرأة التى كانت قارئته الأولى، التى قبلها ألف مرة ومرة فى نهاية خطاباته، هذه الكريستيان روسيل، زوجة وأرملة بول صانع الساعات كانت ماهرة فى الصفع على الوجه. لحسن الحظ، لم نمر بهذه المعاناة. لا لم تفقد يدها منذ اختفاء ابنها، فهذه الأشياء شأنها شأن الدراجة لا يمكن نسيانها، ولكننا لم نتواجد معها كثيرًا حتى نسمح لها بممارسة موهبتها. فضلاً عن ذلك، فإنها كانت معنا - مثلما سبق وذكرت- ذات لطف متناه. إلا أنه فى يوم من الأيام وفى إطار ظروف لا يمكن نسيانها، فوجئت بتغير مباغت فى مزاجها. كنت وصيفة ابنة عمتى. أمسكت العروس باقة زهور دائرية وارتدت ثوباً جديرًا بالعرض فى واجهات أجمل محلات العاصمة، ثوباً بذيل كان من المفترض أن نرفعه كى لا يلامس الأرض، وضعت على رأسها طرحة وصففت شعرها على شكل جديلة ذهبية جاوزت فى روعتها جديلة جدتى. مامى، التى لم تفوتها فائتة، وصل بها اهتمامها بالتفاصيل إلى أن بطنت طبلتى الفضية بطبقة من اللباد المقوى حتى لا تصدر النقود المعدنية التى سأجمعها فى الكنيسة صوتاً. إلا أننى لم ألتمسها فى الوقت المحدد للمرور بين الصفوف. فقد انتابنى رعب أقعدنى فى ثبات تام فى مكانى حتى يتم إغفالى، وبالفعل تم إغفالى -على ما يبدو- بما أن أحدًا لم يأت للبحث عنى، وإذا حاول أحد أن يذكرنى بواجبى بثمة إشارة من اليد فلم أكن لأراه من فرط استغراقى فى تأمل طبلتى التى تم إخماد طنينها، وتجاوزتها إلى تأمل

حذائى اللامع ذى النعل الجلدى. كان حذائى يؤلمنى، كان جديدًا بلا شك وباهظ الثمن. كان شراء أحذية بمثل هذا الثمن نوعاً من الجنون. ولنعد إلى الأقدام،pes, pedis، إلى مفهوم المنع، إلى نقطة ضعف قافز الزانة. وها هى إجابتى على جدتى بعد مرور عدة ساعات عندما سألتنى عن سبب عدم جمعى للنقود مثل بقية الأطفال الوصفاء: لم أستطع السير، كانت قدماى تؤلمانى.

بدأت شفتاها ترتجفان ومعهما قطع اللحم الصغيرة التى تتدلى بين رقبتها وذقنها. كانت ترتدى قميصًا وُضع على ياقته حجر بيضاوى نُقش عليه مشهد ريفى: راعى ومعه خراف أو راعية، لا أدرى، ولكن ما أتذكره جيدًا (هذا مريع، لماذا فكرت فى ذلك فى هذه اللحظة بالذات) هو أنى تساءلت: هل سيئول لى هذا الحجر بعد وفاتها، هل أنا على قدر من الأهمية بالنسبة لجدتى؟ هل لى وجود فعلاً؟ هل أمثل لها ما هو أكثر من لقب واسم ، أكثر من ترتيب فى العائلة (الأخيرة)؟ كنت بحاجة إلى أدلة، بحاجة إلى الاطمئنان، ومن أجدر من والدة أبى على فعل ذلك؟ أمسكت بكتفى. كنا بمفردنا فى ممر هذه الشقة الغريبة التى دارت بها حفلة الاستقبال. لم أفهم سبب حالتها هذه، وهى التى كانت متزنة فى الوقت العادى. سألتها بكل سذاجة إن كانت تعتمد على هذه الأموال لدفع نفقات الزيجة. وكانت الإجابة صفعة. وأردفت قائلة: من جانب الفقراء. وبما أنى أجهشت فى البكاء ضمتنى إليها وبادرت بالاعتذار. بدت صادقة فى أسفها بل وأكثر تأثرًا منى فى الواقع. فلقد شعرتُ بلذة فى البكاء على صدرها الممتلئ اللين. كنت أحب رائحة مسحوق زينتها وانحناءات

صوتها. أوضحت لى أن الأموال المجمعة فى الطبلة كانت مخصصة للأعمال الخيرية فى القرى التى يرعاها الكاهن. لم أكن على دراية بذلك نظراً لأنه لم يتم قط اصطحابى إلى القداس بل وعلى عكس شقيقى لم أرغب قط فى الانضمام إلى الدروس الدينية المسيحية. هذه الواقعة، رسخت هذه الواقعة بينى وبين جدتى رابطة من الخجل المتبادل، بالنسبة لها بسبب صفعى وهو ما لم يكن مطابقًا لذوق العصر وبالنسبة لى لسببين: أولاً لمساهمتى فى زيادة عوز الفقراء، وثانياً لطمعى فى الحجر البيضاوى. كانت حلية قيمة الثمن، وكانت تحتفظ بها فى قاع الكومودينو مع سلاسلها الذهبية، الأسنان اللبنية لأبنائها وساعة بول.

أسنان روجيه نيميه. هل تتخيلى أسنان والدك وقد وُضعت على قطعة قطن فى علبة سجائر. القاطعة الأولى، الضرس الأمامى عندما كان فى العاشرة.

قضيت بقية فترة ما بعد الظهر فى تقديم حلويات البيتى فور وفى إزالة الأطباق عن الموائد المنخفضة بينما راح مارتان يلعب مع الأطفال الآخرين. جعلتنى جدتى أعدها بأنى لن أتفوه بشىء عن "ذلك كله" مع والدتى. ألم تسمع أبداً باللقب الذى أعطاه ابنها لى؟ اتفقنا. يمكنها الاعتماد على، لن أنطق ببنت شفة مع أى شخص كان.

راح البالغون يشربون الشامبانيا وبات صدى أصواتهم يتردد فى غرفة الصالون التى زُين السقف منها بشكل هائل. كان الحاضرون يجدوننى خدومة وشديدة الرقة فى الثوب الذى ارتديته. ثوب أزرق مائل إلى الخضرة، طويل

بشريط معقود فى الخلف، وبأكمام فضفاضة دائرية، على رأسى وضعت عصابة ملائمة ولك أن تتخيل. دامت حفلة الاستقبال طويلاً وطويلاً. أتذكر سيداً كان يحدثنى بيديه ويوجه إلىّ إيماءات مفزعة بالوجه كلما أدار الآخرون ظهرهم لنا.كما كان هناك رجل آخر سند جبهته على الزجاج وأدام النظر من النافذة. كم تتوقت إلى أن يأخذنى بين ذراعيه ويرفعنى إلى أعلى.

كان ألم قدمى بسبب حذائى يزداد سوءًا. كان بإمكانى اللحاق بشقيقى ولكن لا، استمريت فى لعب دور كوزيت وبين الحين والآخر، رحت أتردد على جدتى للحصول على التعليمات، بدت مقدرة لموقفى فأخذت تحثنى على طريق الخير. تميزت طلباتها بالحزم وبالتوافق مع قدراتى. أما عن والدتى، فراحت ترفرف من مجموعة إلى أخرى فى حرية وبتلقائيتها المعتادة. كانت دائماً تدرى ما الواجب قوله فى مثل هذه المواقف حتى -بل وخاصة- مع الأشخاص الذين لا تعرفهم. رحت أتأمل براعتها فى إيجاد روابط بين الحاضرين. فلا تنفك تبسط عند كل مجموعة صغيرة سلسلة جملها الذكية الرائحة ذات الجذور المعطرة. وضعت وشاحاً كشف عن كتفيها البرونزيين- لا أدرى بأية معجزة ثبتته. كنت أجدها آية فى الجمال. وكنت فخورة بأن والدتى على هذا القدر من الروعة. كان الرجال ينظرون إلى ساقيها ويتهامسون فى آذان بعضهم البعض متى مرت بالقرب منهم. كانت تلحظ ذلك، أنا متأكدة، ولكنها تتظاهر بأن شيئاً لم يكن. لاحَظت والدتى أننى أضع قدمَى على الأرض بطريقة غريبة. كما كانت هناك بقع حمراء كبيرة تزخرف جوربى

الطويل عند مستوى الكعبين. رغم اعتراضاتى، جذبتنى إلى الحمام وأجبرتنى على خلع الحذاء بينما أخذت تجلسنى على المرحاض. بدا عليها حزن شديد ومفاجئ وكأنها هى التى عانت. لما لم أطلب منها وضع ضمادات على جروحى؟ ظللتُ متماسكة، متظاهرة أننى لم أشعر بشىء، أننى لا أشعر بشىء، لا، ليس هناك من ضرورة للقلق على. تم تنظيف الحبوب بالميكروكروم وتم وضع الحذاء والجورب الطويل فى كيس بلاستيك. أعارتنى صاحبة المنزل خفاً كبير الحجم تتدلى منه خيوط على شكل دوائر. اضطررت لانتعاله حتى المنزل. دسست جدتى فى يدى قطعة نقود بقيمة خمسة فرانكات لشكرى على مساعدتى إياها- على الأقل هذا هو ما ادعته، ولكنى كنت واثقة أنه لشراء صمتى قبل كل شىء. عاهدت نفسى على إيداع هذه النقود فى صندوق صدقات الكنيسة، وقد جعلتنى هذه الفكرة هادئة ومغمورة بشعور مريح للغاية، الشعور بإمكانية تكفير يتجاوز الخطأ. أراد ثمة شخص التقاط صورة أخيرة لنا على عتبة الباب إلا أن فيلم الكاميرا كان قد استخدم بالكامل. كان شقيقى يمضغ ياقة قميصه الأبيض وهو ينظر إلى قدمى نظرة ساخرة. لقد ظلت قدماى وهذا الخف غريب الشكل لفترة طويلة موضع تهكم. كان قد جمع قرابة عشرين سيخًا من أسياخ الشواء فخرجت بوضوح من جيب سرواله. طلبت منه والدتى إعادتها إلى المطبخ ولكنه أبى. كانت ذكية فى عدم إصرارها عليه لقد أضنانا التعب جميعًا. فهمت جدتى ذلك فدفعتنا بلطف على الردهة دون انتظار أن يقوم المصور بإعادة شحن كاميراته وتخليد هذا المشهد: أسياخ

شقيقى، جمال والدتى وأخيرًا أنا والخيوط التى تتدلى من قدمى.

بعد مرور بضعة أشهر على زواج ابنة عمتى، أو ربما فى العام الدراسى التالى، أجد صعوبة فى قياس الفترة الزمنية بين الحدثين لارتباطهما، اتصلت معلمتى بالمنزل ليأتى أحد لاصطحابى من المدرسة. كنت أشتكى من آلام حادة فى الساقين، لم يكن باستطاعتى وضع قدمى على الأرض. انتابتنى هذه الآلام فجأة، بلاسبب واضح عند خروجى من مطعم المدرسة. اصطحبنى شخص ما إلى البيت ولكنها لم تكن والدتى، من عساه حملنى حتى الطابق الرابع؟ لم يكن على ساقى فى هذه المرة حبوب ولا كدمات زرقاء ولا جروح، ليس هناك تلف ظاهر. تم استدعاء طبيب الأسرة لنجدتنا. سألنى إن كان هناك بالصدفة اختبارًا مدرسيًا فى اليوم التالى، وبالفعل كان لدى اختبار نحو. اتبعت والدتى منذ عودتها من عملها النصيحة التالية: جعلتنى أستحم، أعطتنى أسبرينًا ثم ساعدتنى فى مراجعة تصريف الأفعال. أتذكر مارتان وهو يتجه نحو المطبخ مرتديًا زى قائد هندى. لم يكن ذاهبًا إلى عيد ميلاد ولا إلى حفلة راقصة تنكرية، لا، لقد تنكر على وجه الخصوص من أجلى، من إجل إضحاكى. أخذ يرقص حول المائدة وهو يتلفظ بعبارات سحرية. مررت بليلة مريعة. أيقظنى الطبيب فى الساعة الثامنة بضربة نشيطة على ذراعى وأجبرنى على الوقوف، كان على أتم الاقتناع بأنى أدّعى ذلك حتى لا أذهب إلى المدرسة. وقعت عند نهاية السرير، بل قل هويت مثل الحقيبة دون أن أستطيع القيام. سكبت العبرات فى صمت. فأنا، أنا لا

أصرخ، لقد تجاوزت مرحلة الصراخ. انتابنى الشعور باحتراق داخلى فى قدمى وبتقلص فى العضلات تحت تأثير الحرارة وبانفجار وشيك فى العظام. ساعدتنى والدتى فى الاستلقاء على السرير من جديد. كانت حركاتها حنونة ورقيقة. كانت تترقرق فى عينيها دمعات. أتذكر أنى تكلفت الابتسام حتى لا تقلق، فلم أكن لأتحمل رؤيتها فى هذه الحالة، لم أعد أريد أن أراها تبكى مطلقاً. كفاها ما عانت.

تغير موقف الطبيب إلى النقيض. شخّص المرض على أنه داء رثية القلب وهو المعروف بـ RAA أو الروماتيزم المفصلى الحاد وهو عبارة عن رد فعل مناعى متفاوت (وهو ما عرفته لاحقاً) لهجوم من مجموعات البكتريا الدائرية. بعد إجراء تحاليل دم أثبتت حدسه، بدأ العلاج ورافقه زيارات لا نهائية للمستشفى حيث كان يتوجب على أن أتجرد من ملابسى أمام الجميع. كانوا يطرحون على أسئلة ولا أحد يسمع الإجابة. كانت والدتى هى التى تتحدث بلسانى، كانت تفعل ذلك دائماً بدقة بالغة، وبدا على الأطباء أنهم يقدرون بوجه خاص ما روته عن السوابق المرضية فى العائلة، فأحد أبناء أعمامى الأشقاء لوالدى عانى من نفس الداء، كانت تعلق على نتائج الفحوصات ومنحنى الحرارة ومنحنى الوزن وتتحدث عن الرجيم الصارم الذى نتبعه حرفيًا. فالسكر ممنوع والملح أيضاً. ألا يمكن مع ذلك تناول القليل من الجبن لتوازن الوجبات؟ كانت تقول "نحن" للحديث عنى مثلما كان يقول والدى "نحن" للحديث عن نفسه. كنت أحب طريقتها فى تحمل المسئولية. كان لدى والدة ليس فقط جميلة جدًا بل

وقديرة جدًا، فهى تشبه بطلة هذا الكتاب ماما تتسق كل شىء الذى ظل طويلاً المفضل إلىّ بسبب عنوانه.

فى أحد الأيام بالمستشفى، لاحظ طبيب شاب ندبة صغيرة على أسفل إبهامى. وضع نظارته ونظر إليها عن قرب، رفع ذراعى وأداره تحت الضوء وكأنه يريد الكشف عن حقيقتها المستترة. لقد نسيت اليوم سببها، ولكنى كنت أعرفه فى السابق، وكنت أود أن أبلغه للرجل الشاب، أردت أن أشرح له أن هذه العلامة لا علاقة لها بالمرض الذى أتداوى منه. إلا أن الأستاذ كان فى قمة الاستنباط وتمت الإشارة لى كى أصمت. مرة أخرى احتفظت من هذا التوبيخ بذكرى سيئة، وكأن تلك المعلومة لم تكن سطحية مثلما اعتقدوا. لا أدرى من أين تواتينى هذه الفكرة، ليست ذكرى، لا، بل حدسًا. أشعر أن هذه الندبة كانت نتيجة عضة، نعم، كأن والدى يمسك يدى ويعضها وفورًا تتبدل الأدوار لأصبح أنا التى أعضه وهو يمسك معصمه أمام وجهى. كان يقول لى: عضى، عضى، فأعض ولكن ليس بالقوة الكافية فيضحك.

أفكر من جديد فى أسنان والدى اللبنية المرتبة مع الحجر فى كومودينو جدتى.

لما نتذكر بضعة أشياء تبدو فى ظاهرها بلا قيمة بينما يطوى فى طى النسيان أجزاء كاملة من الطفولة؟ فعلى سبيل المثال، لا أستطيع تذكر كيف كنت أقضى الأيام، لا ذكرى تراودنى حول هذا الموضوع. لم نكن نقتنى التليفزيون، ماذا عن المذياع؟ نعم بلا شك، هل كان يتم إحضار الواجبات المدرسية لى فى المنزل؟ هل كان يتم دفع راتب لشخص ما ليلازمنى عندما تكون والدتى فى العمل؟

وبأى أموال كان يتم الدفع؟ أتذكر قلقى من ذلك، من كل هذه النفقات، من رسم القلب الكهربائى الذى يتم فى المنزل، من تحاليل الدم، من الأدوية. كنت أخجل من تكلفتى الباهظة بالنسبة لوالدتى. ففى أحد أركان غرفة الصالون، بجانب مكتبة والدى، تم وضع سرير من الخيزران خُصص لى وتم فرشه ببطانية جديدة. ما من سبيل فى ذهابى إلى المدرسة أو فى مشاركة مارتان فى الغرفة. وداعاً أيتها النكات والأحاديث الجانبية فى الظلمة قبل النوم. لقد تم إقصائى حتى يتم شفائى.

وخلال أشهر طويلة، ظللت ممددة على السرير، صبية منتفخة من الكورتيزون تم التلميح إليها بأنها لن تكبر. فتلك هى النتيجة الممكنة لروماتيزم المفاصل: وقف النمو علاوة على العواقب القلبية التى كان الطبيب يخشاها قبل كل شىء. فكان يكرر بحماس هذا القول المأثور الذى يبدو فخورًا بحفظه رغم ما يتركه من مذاق غريب فى فمى: الـRAA يلعق المفاصل وينهش القلب.

وإذا كانت تلك الجميلة بدت لى دائماً مخيفة، فإن عواقبها فى ذاتها لم تقلقنى بالدرجة: فالموت المبكر عادة عائلية. منذ ريعان شبابى اعتدت على فكرة عدم العجز. أما بالنسبة لطولى، فهذه أيضاً مسألة اعتياد. فدائمًا كنت من بين أقل الطلبة طولاً فى الفصل، من بين هؤلاء الذين يقفون فى الصف الأول عند التقاط الصور. فالجميع كانوا أضخم منى بدءاً بوالدتى، مرورًا بإخوتى وزملائى ووصولاً إلى ذكرى طيف والدى. كان الأمر على هذا النحو ولم يكن يزعجنى. أما عن أصعب ما كان على تحمله فى القصة، فهى حقن البنسلين التى أضيفت لعلاج الكورتيزون والتى كان يتم إعطاؤها لى صباحًا ومساء.

ولإعطائى الشجاعة، متى كانت الممرضة تخرج علبتها المعدنية، كنت أنظر إلى الكتب. كنت أتشبث بهذه الكلمات التى اختارها والدى. تحدثت عن هذه المكتبة فى روايتى عن الإباحية، وذلك لأن محاولة قراءة العناوين كانت تعد نوعًا من انتهاك المحظور بالنسبة لى. هل كان والدى منعنى من لمسها؟ أتذكر بوضوح رواية اسمها أدراج المجهول، نهلت منها قوة هائلة.

بدأت مع الأطفال منذ بضعة أيام قراءة سفر نيلز أولجرسون العجيب عبر السويد لسلمى لاجرلوف، وهو أول كتاب قرأته فى سلسلة الجيب. نيل (بدون ز) هم اسم تمساح إليو المخملى، الأمر الذى يجعله يصغى إلى بشغف أكبر من مارلان الذى يمل حتمًا من وصف المناظر. تعاودنى ذكرى بعض المشاهد بوضوح مؤثر. على سبيل المثال، هذا الصبى المحكوم عليه بأن يظل صغيرًا لأنه أساء معاملة الحيوانات وهو يرتفع فى الهواء على ظهر ذكر أوز أليف ليلحق بالأوز البرى. عندما يعود أدراجه إلى والديه بعد هذا العبور الطويل، يتلفظ بجملة تذكرنى تلك التى قالها بينوكيو عندما لقى والده فى بطن سمكة القرش. قال بدوره بطل سلمى لاجرلوف :" أنا كبير، أنا كبير الآن."

أبسط ساقى، ألمس الحائط بطرف أصابع قدمى، أفرد جسدى. تقص والدتى أن فى يوم ما عندما كنت فى الرابعة عشرة من العمر، أخبرتها أنى سأتجاوزها أى سأتجاوزها فى الطول. وهذا هو ما حدث على الرغم من أنى لا أتذكر قولى تلك الجملة أو إعلانى تحد مماثل أو حتى تفكيرى فيه: فى صور السنة الأولى من المرحلة

الثانوية، أقف فى الصف الأخير. وضيعت وقتًا طويلاً فى ترويض هذا الجسد الذى لا يتوافق كثيرًا مع ما أعرفه عن ذاتى. حتى وقتنا هذا، أُدهش عندما أباغت خيالى على زجاج المترو.

خلال القراءة للأولاد، كثيرًا ما أقاوم النوم وكأن صوتى يؤثر على تأثير التنويم المغناطيسى. ولكن ما إن أضجع، أظل متيقظة لساعات طويلة، أفكر فى عمل اليوم. أحيانًا يراودنى الشعور بأن الذكريات تتدافع، وأن الأمر يستلزم سنوات حتى أستطيع الانتهاء منها. وفى ليال أخرى، لا أجد ما أقوله، فقط فصل أو فصلان وينتهى الكتاب. لكان الأمر أيسر كثيرًا لو حكيت قصة بمقدمة ووسط وخاتمة. أحتفظ فى مكتبى بثلاثة ملفات حافلة بملاحظات تصلح لأن تكون نواة لروايات يمكن تحريرها، ولكن ليس هذا بالوقت المناسب للاستغراق فيها. لقد أمضيت سنوات عدة وعيناى شبه مغمضتين، بل أعتقد أنى لم أفعل سوى ذلك طوال حياتى: على نحو ملائم وبلا ضجيج، أنكرت وجود والدى. روجيه نيميه وإلا كيف كنت سأتخلص منه. لا أستخدم الفعل أنكر (nier) بلا تبصر. فخلال كل هذه السنوات، لم أوقعNimier (نيميه) ولكن (Ni(m)ier) . فكنت أضع بدلاً من حرف الـm خطًا مستقيمًا، وكان حرف الـ I يختفى بدوره وقد جرفته حركة يدى. لاحظت ذلك بينما كنت أوقع شيكًا عند طبيب الأسنان. قلما تجد رجلاً برقته. كان يعمل فى جو موسيقى وكان يحرك رأسه وفقاً لإيقاع صوت يد الحافرة. ولكن كل ذلك لم يكن ينجح دائماً فى طمأنتى. كان محبًا لموسيقى الجاز والفن المعاصر. أعتقد أنه كان

يهوى الرسم أيضًا. لم أفسر له سبب احمرار وجهى عندما أعطيت له الشيك، ولكنه لاحظ جيدًا أن هناك مشكلة ما. سألنى إن كنت أود أن أسدد فى الشهر التالى أو أن لا أدفع مطلقًا إن لم يكن معى أموال كافية. آنذاك، لم أكن أتمتع بالضمان الاجتماعى نظرًا لعدم كونى طالبة كما أننى لم أكن قد حققت مكاسب كافية من حقوق الكُتّاب حتى أنضم إلى تنظيمهم. ولكن إذا كان الطبيب قد افتضح أمرى، فإن المسألة لم تكن تتعلق فى هذه المرة بالأموال. كنت قد حصلت لتوى على دفعة أولى من روايتى القادمة، وكان يمكننى تسديد ديونى وكنت فخورة بذلك. مزقت الشيك وحررت واحدًا آخر متظاهرةً إنى أخطأت فى قيمة الأتعاب. انكببت على كتابة اسم عائلتى كاملاً. راودنى شعور مباغت بأنى لا أعرف كيفية كتابته. هل لك أن تتخيل الرعب، رعب عدم معرفة تهجى اسمك. وضيعت وقتًا طويلاً حتى وجدت توقيعًا سهلاً.

يجب بلا شك الرضوخ لذلك فى حال العجز عن فعل شىء آخر. تغيير الشكل لفحص العمق. هل هذا دليل نضوج؟. كل ذلك يبدو لى مدرسياً. يبدو أن Nimier مشتق من linier وهو من يقوم بزراعة الكتان. ليتنى كنت فى خفة هذه الزهور الصغيرة الزرقاء. شبيهة أنا بوالدى، عريضة المنكبين، قوية الجسد، راسخة بثبات على ساقين ثقيلتين.

يراودنى أحيانًا التساؤل التالى: ماذا كان سيحدث لوالدى لو كنتُ توفيت قبله؟ عجلة تنفصل عن إطار خرج عن مساره. وجدت هذا الصباح المقال الذى يتحدث عن الوراثة، وهذه الصورة التى أتناول فيها السيارة الصغيرة.

عدة صفحات لاحقة، توقفت عند صورة مارجريت سالانجيه وقد جلست على ركبتى والدها. ثمة تشابه بيننا. فسالانجيه يعيش منغلقاً على نفسه فى أملاكه بنيو هامبشاير. لم نقرأ له منذ ثلاثين عامًا، ورغم ذلك لا يمكن اعتباره كاتباً صامتاً. فمن المفترض أن لديه قرابة خمس عشرة رواية أودعها فى خزانته. حاولت أن أتخيلنى مكان الفتاة الصغيرة الجالسة على ركبتى أبيها إلا أنى لم أستطع وكأن خانة "صور العائلة" تم إزالتها من عقلى. يفتح سالانجيه فمه فى الصورة، فهو يتحدث ويريد أن يبدو مقنعًا. ينظر إلى ابنته فى عينيها. تلوى مارجريت يديها وقد بدا عليها علامات الانتباه الذى لا يخلو من العبوس، ربما راح يقص عليها ميلاد العالم أو يشرح لها أنها يجب أن تنام وقت القيلولة لتصبح فى أفضل حال خلال التنزه. إجمالاً فهى صورة أب جيد وفى رفقته ذكريات عذبة: عرض أفلام هيتشكوك فى غرفة الصالون وصوت الفيلم وهو يصفع باطن اليد عند خروجه من جهاز العرض، الأطباق الطائرة مع درافيل حوض ميامى أو النقود المعدنية التى يضعها بلا حساب لتشغيل الأجهزة التى تحتوى على إسطوانات. ولكن على هامش هذه الصورة المبهجة، جاءت أخرى معتمة، رسمتها ريشة ابنته وصورته فيها على هيئة شيخ روحانى سيىء يبحر بين المعتقدات المتعصبة بدءاً من البوذية الجديدة ووصولاً إلى العلوم الأنطولوچية. شيخ روحانى فرض على عائلته جلسات إبر صينية بخِلال الأسنان، وكان لا يتحمل أدنى تغيب من جانب المحيطين به. كتبت مارجريت تقول إن فى عالمه، كل عيب يمثل خيانة ويجعلك شخصاً سيئاً. أخذت

تتحدث عن هذا الكوخ الموجود فى الغابة حيث كان يخلو بنفسه للعمل. فى شبابها المبكر، تعودت على إحضار الغذاء له، لم يكن والدها بحاجة إلى منعها من النظر إلى ما هو مبعثر على مكتبه. فمارجريت لم تهتم قط بقراءة ملاحظاته وإن صغرت: كانت تراعى أن تدير بصرها خشية أن تطلع عليها حتى ولو بطريقة غير مقصودة. أرانى فى غرفة الصالون أحاول سرًا قراءة عناوين الروايات. نستطيع بسهولة تخيل رد فعل سالانجيه عند قراءة كتاب ابنته وهو الشخص الذى عرف كيف يفرض جيدًا على أقاربه حبه للكتمان الذى وصل إلى درجة المرض. حتمًا معه الحق، كل الحق فى الاختلاف معها مدى الحياة.

من يدرى؟ لعل ذلك هو ما كانت تبحث عنه، عذر حتى لا تحادثه ثانيةً. ويرجع سبب تركيزى على شهادة مارجريت سالانجيه هو أننى شخصيًا تظاهرت طويلاً أنى لم أكن لأتفق مع والدى. وإذا طُلب منى تحديد فكرتى سأشير بالتأكيد إلى اتجاهاته السياسية ولكن أيضًا بطريقة ملموسة أكثر إلى أسلوبه فى الحديث عن المرأة فى كتبه، إلى شغفه بالأسلحة، بالملابس الرسمية وبسيارات السباق وجميع هذه الأشياء التى تبدو لى غريبة كل الغرابة. كان هناك تعارض واضح بين اهتماماته وبين مرحلة المراهقة التى كنت أمر بها. يتمى روجيه نيميه بالتأكيد إلى هذا الماضى الذى نرغب أن نضرب به عرض الحائط. متى هتفنا فى المظاهرات "شرطة، فاشية، قتلة"، دعوت الله ألا يتم اكتشاف نسبى فى يوم من الأيام. فأب ملكى، فكرة لا تروق لها كثيرًا. كان بإمكانى دائمًا الدفاع

عن نفسى بأن أخفف من حدة مواقفه وبأن أبرز صفة "فوضوى اليمين" وهى ذات نفع فى مثل هذه المناسبات، ولكن بما كنت سأجيب إذا عرفوا أن الخنسيس لويس-فاردينان، صاحب كتاب ترهات لمذبحة كان يضعنى على ركبتيه ويدللنى بل والأسوأ من ذلك أنى أحتفظ من زياراتى لمنطقة مدون بذكرى بديعة؟

أعتقد أنى أدركت اليوم السبب الذى دفعنى إلى اختلاق هذا اليقين (فكرة التعارض) بعيدًا عن الحجج السياسية والاعتبارات الأخرى المتذبذبة المرتبطة بالعصر.فبشكل أعمق ودون أن أستطيع خلال مراهقتى التى كانت تميزها مواقفى السياسية أن أصيغ هذا السبب: رُب والد متوفٍ خير من والد يهدد بخطفك، بانتزاعك من والدتك التى تعشقها، من والد يشق الأرائك، من والد يحاول خنق زوجته ثم يعود فى صباح اليوم التالى ومعه باقة زهور.

أو يقطع شرايينه فى سرير تم فرشه منذ قليل.

فلنتناول هذا. ملاءات بيضاء ظاهريًا مثل زواجى فى الولايات المتحدة وها هى توضع فى البانيو. كان ذلك قبل تركيب غسالة الملابس، وكذلك قبل وصول قافز الزانة إلى باب الدولاب. ملاءات بيضاء تخرج منها خيوط حمراء اللون. أغمس يدى فى مياه البانيو الباردة، أحركها قليلاً فتطفو سحابة وردية فوق النسيج، بللت كم بيجامتى فجففت ذراعى ببرنس الحمام المعلق على الحائط. سقط ولم أكن طويلة بالقدر الكافى لتعليقه. أسمع والدتى تتحدث فى الهاتف أو قل، أتخيل سماعها لأن ما من شىء مؤكد فى الحقيقة، كل ذلك يبدو لى اليوم وكأنه إعادة

تشكيل، ضرب من الإخراج المسرحى. فى سلة مهملات الحمام، استرعى انتباهى شىء ما: شفرة حلاقة، لم أكن أعرفه بعد، لا أعرف الكلمة التى تدل على هذا الشىء القيم. أرغب فى أخذه ولكنى أعلم أن من الممنوع النبش فى سلة المهملات. أشعر أن والدى لم يعد فى غرفته من الناحية الأخرى للحائط. أو ربما تم أخذه، إلى المستشفى؟ ماذا عن إخوتى؟ لا أتذكر شيئاً عنهم. هل كانوا يغطون فى نوم عميق؟ هل حدث ذلك خلال الليل؟ والدتى على اقتناع بأنى لم أشاهد الواقعة، بأنى لم أر الملاءات فى البانيو، ولا حتى شفرة الحلاقة. هذه واحدة من الأشياء الأخيرة التى روتها لى والدتى عن والدى، محاولة الانتحار. قبلها لم يحدثنى أحد عنها، فكيف أفسر ذلك؟

كيف أفسر ذكرى هذا الحوار بين مربية سان كيه بورتريوه وأحد أصدقائها؟ كانت تقول إنه يكفى للإنسان أن يقطع بنفسه شرايينه حتى لا يشعر بشىء. وأصرت على "أن يقطع بنفسه شرايينه" مثلما نقطع الخبز أو حزمة كرات، خلال الاستحمام مثلاً. أرى بالضبط مكان كل شخص فى الغرفة: أنا ممددة على الأريكة، رأسى على الوسادة، متظاهرةً بالنعاس ولكن أذنىّ مصغية، مربيتى جالسة بالقرب من النافذة، والصديق المشار إليه جالس على مقعد الزوار. تلك هى الصورة الوحيدة التى بقيت معى من هذا الصيف. لماذا احتفظت بهذه المحادثة إذ لم أكن مدركة للموضوع؟ الرجل، صديق المربية، أكد قائلاً: "هذا صحيح. لا يؤلم أن يتم قطع الشرايين تحت صنبور المياه". وكأن المشكلة تكمن هنا. عندما يحين الموت: هل نتألم أم لا.

كيف أفسر خوفى المرضى من السكاكين بصورة عامة وشفرات الحلاقة بصورة خاصة وهذه الطريقة التى لازمتنى طوال حياتى فى حماية رسغى؟ اكتشف مارتان نقطة ضعفى وكلما أراد تعذيبى، وضع سبابته على شرايين ساعديه محاكيًا مرور شيء حاد عليها. كان يفعل ذلك أينما كان ووقتما كان خاصة فى الأوقات غير المتوقعة: على المائدة، فى طريق المدرسة، أو بينما كانت تحدثنا والدتنا وفى كل مرة، كان ينجح فى إخافتى. لقد ورث شقيقى من والدى ليس فقط أعمال دوما وقاموس لاروس بمجلداته السبعة عشر، ولكن أيضًا موهبة خاصة فى التصرفات السادية العادية المشار إليها هنا وهناك من قبل أصدقاء والدى على أنها علامته المميزة أو عيبه الصغير الفتان. ما من شر ظاهرى، فلم يكن هناك ما يجعل الآخرين يشيرون إليه على أنه متهم بالأذى. كنت زبونة حالمة، آخر العنقود المدللة بالتأكيد، فكان لزامًا عليه من آن إلى آخر إظهار علو شأنه. أسر شقيقى بذلك إلى صديقتى المفضلة (صاحبة الهمستر) التى لم تستغل المعلومة بكثرة ولكنها استخدمتها فى الوقت ذاته برباطة جأش لا تزال تثير ارتعادى. بمجرد أن تعلمت النسج بالصوف، صنعت لنفسى أساور عرضية صوفية ساعدتنى فى مواجهة العالم الخارجى وأخطاره الوهمية. صنعت أساور من الألوان كلها وكنت الائمها مع ملابسى. كان ذلك جميلاً وكان يجعلنى أقل عرضة للجروح. كان لدى أيضًا قفاز من الجلد تم شراؤه لى من الصيدلية للنحت على الحجارة، وكنت شغوفة بارتدائه. وحتى اليوم، أثناء عملى، أبسط جيدًا رسغى على أسفل لوحة كتابة الأحرف. أحب

أن أشعر ما من شىء قد ينساب بين جلدى وبين البلاستيك ولا حتى ورقة. فإن للورق قدرة على القطع،. لا أتحمل كذلك رؤية قَطَر مفتوح مبعثر على المائدة، أجد صعوبة فى استخدامه. وعلى ذلك، لا ألجأ إليه إلا عند الضرورة القصوى وأضعه بأقصى سرعة فى درج المكتب. بالليل، أنام ويداى مطويتان.

وأخيرًا كيف أفسر هذا الغطس فى نهر السين الذى بدا للجميع بما فيهم أنا مطلسم؟ لا أرغب فى الحديث عنه باستفاضة هنا ولكنى على الأقل سأشير إليه، لن أتجاهله. كنت قد أتممت الخامسة والعشرين، ألقيت بنفسى من فوق كوبرى ألما فى ظلمة الليل بعد ابتلاعى أربع علب مهدئات منومة. لم أكن أعانى من أزمة عاطفية وكنت فى حالة صحية جيدة. كنت أعمل فى فرقة مسرح موسيقى بالولايات المتحدة، وكانت الأمور تسير على ما يرام بالنسبة لنا جميعاً. إذًا لماذا هذا اليقين من ضرورة وضع حد؟ وضع حد لأن بالضبط كل شىء على ما يرام،لأن الأمور تزداد تحسناً، كما لو كان يجدر الرحيل والشخص فى أفضل أحواله، كما لو أن الهبوط لا يُعقل. فقدت وعيى بعد بضع ثوان من شعورى بصفعة المياه. كنت أقول لنفسى: كفاك تخبط، لا تتحركى، استسلمى للغرق، ثم أغمى علىَّ. استعدت وعيى فى المستشفى. تم ربطى بأنابيب كانت تؤلمنى. راحت سيدة عجوز، واضعة يديها بين الفخذين، تتأوه فى السرير المجاور. لقد توقعت كل شىء، أخذت حذرى من أن ما من سيارة تكون عابرة على الكوبرى أثناء سقوطى فى السين وارتديت ملابسى ثقيلة: تنورة طويلة ومعطف مخملى، أراهما الآن معلقين فى

دولاب بجوار السرير. كانا جافين ومتصلبين. بعد فترة زمنية بدت لى طويلة، دخلت ممرضة إلى الغرفة. سألتنى وهى تشير إلى الملابس: أين كنت ذاهبة بكل هذه البهرجة، إلى حفلة؟ نعم، إلى حفلة إذا صح القول. لم أكن أقوى على الشرح، وكنت أشعر بظمأ شديد. رغبت فى معرفة بمن تتصل، أعطيتها رقم تليفون والدتى ورقم صديقتى. وبينما رحت أنطق هذه الأرقام استوعبت أننى أخفقت. فمحتوى حقيبة يدى هو فقط الذى غرق فى قعر نهر السين: بطاقة هويتى، علبة السجائر، والقطة اليابانية الصغيرة التى كانت تجلب لى الحظ والتى كنت شديدة التمسك بها، كان سائق التاكسى قد سألنى أى الجانبين من كوبرى ألما أريد وأجبته "لا أبالى". الأمر الذى أضحكنى ولكنه لم يفهم السبب.

المرة الأولى التى فكرت فيها فى الانتحار كانت فى أيرلندا. كنت فى الحادية عشرة أو ربما الثانية عشرة. كنت جالسة فوق جرف، لم تكن هناك رياح أو رذاذ. لم يكن هناك مشهد يثير المشاعر. فقط بضع مراكب تلوح من بعيد وشاطئ خال من الناس يشهد وفاة البحر والأمواج. لا أعرف كيف ولا لماذا انتابنى ذلك. شعرت فقط برغبة فى أن أترك نفسى أهوى، برغبة جامحة فى الموت.

أجد اليوم شهادة صديق لروجيه نيميه يتحدث عن هذا الأسبوع الذى قضياه معًا فى صيف ١٩٦٢ على بحر أيرلندا، قبل الحادث ببضعة أشهر. أين كنت فى ذلك الوقت؟ فى نورماندى؟ فى سان كيه بورتريوه؟ أيرلندا، تلك هى الكلمة التى ظلت محفورة فى ذهنى على أنها آخر

مكان قضى فيه والدى عطلته. أيرلندا أو اليقين فى أن قفزة واحدة فى الفراغ تكفى لقلب التاريخ، لتأرجحه. إذ لم يعد والدى، فعلى بلا شك اللحاق به. فمنه سحبت الموت وكأنه معطف أرنب قديم أو قطعة قماش غير نظيفة، مثل تلك التمائم التى يتمسك بها الأطفال والتى تذهب للغسيل؛ لأن الوالدة قررت ذلك على سبيل الوقاية الصحية. لكن الطفل فى الصباح يبكى لأنه لم يعرف رائحة تميمته، لا يهم أن تكون طيبة أو رديئة، لا يهم أن تحب أو لا تحب هذا الوالد الخطر، أن تتفق أو أن تختلف معه. يجب التكيف مع ذلك، مع الغياب، مع الخوف، مع الألم، التكيف مع ذلك. فى الأسوأ أن نقبّض كما أكد عليه الصحفى. وفى الأحسن، أن نشكل كما نشكل باقة زهور.

رغم أن سيارة نقل البضائع كانت حمراء، بدا لى من المستحيل تفاديها. أحمر فاقع مثل أستون مارتان المشار إليها فى وصية الوالد. قدت السيارة بشكل جيد حتى ذلك الوقت، وكان يبدو على الممتحن الارتياح. فهذه هى المرة الثالثة التى اجتاز فيها اختبار القيادة ثم ظهر فجأة هذا الشىء الوهاج المتجه إلى آخر ميدان. كيف لم ترنه؟ كذبت قليلاً. قلت إننى كنت على وشك التوقف ولكن الممتحن سبقنى. ولكن لا، فبصراحة شديدة لم أره. وبما أننا فى هذا الشأن، فسيارة روجيه نيميه لم تكن حمراء وقت الحادث. كان والدى قد أعاد طلاءها باللون البنى إلا أن الجرائد وصفوها مثلما أرادوا أن يروها، حمراء، حمراء للغاية. ظللتُ لفترة طويلة، أتصور الأستون مارتان، وكأن هناك ارتباطًا وثيقًا بين ما كان بداخل جسد والدى

والغطاء الذى اختاره لنفسه، بين الدم والحديد، علاقة متبادلة تامة استدعت الضغط الحتمى الذى أشار إليه عدة كُتّاب بكلمات "القدر" و"المصير". حتى الآن، يصعب علىَّ تخيل هذه السيارة بشكل آخر، مثلما يصعب عليك تخيل أن جيمس دين كان يدخن الغليون. بنية اللون؟ أواثقة أنت؟ فالأسطورة شديدة الثبات حتى أنها تترك أثرها على أماكن خارج إطار تأثير الحقيقة. تنزلق الأصابع، تنغمس الروح ولكن نعم، كانت بنية اللون مثل لون الأرض والفضلات. بنية مثل أن يتم خداعك، أن تقع فى شرك، فى مكيدة وفى هذه الحالة فى الخيالات الجماعية.

لم أتلق أخبارًا عنه منذ وقت طويل ورؤية اسم هذا الصديق الروائى فى أعلى قائمة الراسلين أسعدنى سعادة بالغة. أرسل لى ليعرف إلى أين وصلت. كتب يقول: "لست قلقًا عليك. لم أقلق عليك قط ولكنى أود على الأقل أن أعرف إن كنت تشعرين بالارتياح فى العمل". إن الجملة شأنها شأن الملبس، يجب ألا تحك فى الظهر، ألا تزعج فى أعلى الأكمام، ألا تجعلنا نشعر بالأناقة الزائدة عن الحد أو على العكس بالبلاهة.

البلاهة؟ نعم، أحيانًا، ولكن الأناقة الزائدة؟ لا. تعاودنى ثمة كلمات مستخلصة من المونولوج الذى تم إخراجه فى خريف هذا العام بلافارم دى بيوسون. قالت الشخصية الرئيسية لذاتها بعد الإشارة إلى وفاة شقيقتها الصغرى: "يا لك من مثيرة للشفقة يا طفلتى المسكينة".

أسمع صوت الممثلة، أرى عينيها ترتفع نحو السماء وتراودنى ابتسامتها الخبيثة وهى تضيف منتصبة: " ولكن

لن يعلم أحد بتاتاً ذلك وسأتبع حتى النهاية شعار جييوم درورنج: سأظل متماسكة".

التماسك؟ أتعنى هذه الكلمة شيئاً عندما نتحدث عن اختفاء شخص حبيب؟ نعم، بالتأكيد. نتعلم ذلك ونحن فى ريعان شبابنا عندما نسمع أحاديث البالغين: كيف استطاعت ابنة عم فلان أن تبدى شجاعة باهرة بعد فقدانها لابنها. عزة النفس. الثبات. عدم إزعاج الآخرين. عدم استدرار الشفقة. عدم التذمر خاصة فهذا هو قمة عدم اللياقة. وإذا كانت الجملة تحك، إذا كانت تسبب الدمامل، هل يجب التخلص منها؟ ألا يكفى قطع البطاقة؟ نسيان التشكيل؟ ألا يجدر إهمال الكلمات أكثر من محاولة إدماجها فى القصة بأى ثمن.

أجبت بإسهاب على جواب صديقى وأكدت- وكأنى أبحث أساساً عن طمأنة نفسى- أننى أتقدم. لا، ليس أننى أتقدم (لقد تحققت لتوى) ولكن "هناك" تقدم. وكأن الكلمات لم تعد ملكاً لى، كأنها بعيدة عنى، لها حياتها الخاصة، تتكاثر وفقًا لقواعد أكاد لا أسيطر عليها. قصصت له مغامرات الصبية الأخيرة، كيف أقمنا كوخاً فى الغابة، كوخًا للأشقياء، كيف تبنوا زوجاً من الزاغ، جونى وجانيت، كيف أن هذين الأخيرين يحطان على حائط بستان الخضر والفاكهة بمجرد أن نجلس على المائدة، وكيف أنهما يقتربان فى تمايل كلما تناولنا الطعام. لم أجد شجاعة أن أحدثه عن بيع المزاد. فحتى الآن، لم أنبس ببنت شفة عن هذا الموضوع لأى شخص كان. يجدر

علىَ تقبل فكرة هذا المزاد أولاً، يجب علىَّ فى المقام الأول ترويضها مثلما يروض الأطفال طائرى الزاغ. بدأت القصة بنظرة متلألئة من بائع الجرائد فى القرية، الثلاثاء الماضى. كان لديه شىء يريد إبرازه لى، شىء وضعه جانبًا من أجلى. انتظر حتى غادر بقية الزبائن المحل ليختفى بضع لحظات تحت طاولته. وعندما أطل من جديد بشعره الأشعث كان يمسك بيديه -مثل تذكار الصيد- نسخة استثنائية من لاجازيت دى كولوكسيونير.

لم يكن الحيوان المعروض على الغلاف أسدًا يزأر أو أيلاً كبيراً من الخشب المحفور ولكن ضفدعاً من اليشب الأخضر الفاقع المطعم بأحجار كريمة. تذكرت هذا المطعم حيث كان والدى على موعد مع أصدقائه ليلة وفاته. ولكن من المستحيل أن يكون بائع الجرائد يعرف روجيه لاجرونوى، حتى وإن سمع عنه. لما فكر إذاً فىّ عند حصوله على هذا العدد من لاجازيت دى كولوكسيونير؟ فأنا لست هاوية مجموعات، بل أنا على النقيض: لا أحب الاحتفاظ، لا أحب الحصول، لا أحب التملك، هل هذه ميزة الأيتام؟ الفراغ يطمئننى والاكتظاظ يقلقنى. لا أفكر فقط فى هذه الأشياء الزخرفية التى تتكدس على الأرفف فى غرف الصالون والنوم ولكن أيضًا فى التراكم المنزلى للأغذية ومتطلبات الأسرة. مرتاعة أنا من كم البضائع التى يبتاعها الناس لتزيين دواليبهم لدرجة أنه يمكننا الاعتقاد بأن الدواليب هى التى تطلب حقها، كأنها هى التى تشعر بالجوع، هى التى تفرض قانونها وهى التى تشاهد الإعلانات.

أخذت المجلة وشرعت فى تصفحها. خُصص الملف الرئيسى لمنزل شخص يهوى تجميع الضفادع. كان يعيش محاطًا بكل أشكال الضفدعيات: وسادة صغيرة للجلوس، براد شاى، مرحاض، قنديل، حتى شجيرات حديقته تم شذبها على شكل حيوانه التميمة. ونظرًا لإطالتى النظر فى هذا المقال، اقترح بائع الجرائد على أن أنتقل إلى قسم "البيع بالمزاد" بعد عدة صفحات. وهنا وقع نظرى على صورة التقطت على سفينة. أمام العدسة، وقف رجل شاب يوارى عينيه بكتاب. أكد تعليق الصورة حدسى: هذا الرجل الشاب لم يكن سوى والدى.

والدى الذى أراه فى صورة بالألوان لأول مرة فى حياتى.

استدرت تجاه الحائط لستر انفعالى. فلم أفكر قط فى ذلك. لقد قلت لنفسى أنه لا يوجد صور لوالدى معنا، نحن أبناؤه. أما عن الصور التى يظهر فيها كاملاً فهى قليلة (لقد اكتشفتهم متأخراً جدًا)، الصورة الوحيدة التى عرفتها له طوال طفولتى كانت صورة حزينة لوجهه تم وضعها فوق المدفئة) ولكن لم يخطر ببالى قط أن جميع هذه الصور، بلا استثناء، كانت بالأبيض والأسود.

صوت غريب جعلتنى أنتفض، صوت يأتى من أعلى، فاتر قليلاً. إنه زبون يطلب منى ...ماذا يطلب منى؟ ماذا ينتظر منى؟ فقط أن أتنحى قليلاً، ما من شىء خطير، حتى يصل إلى كتيب الكلمات المتقاطعة الموجود خلف الباب الدوار. غلقت المجلة وأنا منزعجة بعض الشىء من أن شخصًا ما باغتنى وأنا أكتشف هذه الصفحات

الشديدة الخصوصية، وكأن هناك ما يخدش الحياء فى رؤية والدى بالألوان. انتظر بائع الجرائد تعليقاتى، تمتمت بجمل شكر غير واضحة. اعتقادًا منه أن ضيقى ما هو إلا تعبير عن خيبة أملى، أحس البائع بأن عليه أن يبرر موقفه. كان يعتقد أنى على علم بالحدث ولكن ليس بملحق لاجازيت. فالمقال يعلن فى الواقع بيع ثلاثة مخطوطات لوالدى علاوة على خطابات موجهة لأحد أصدقائه. شكرته من جديد. كنت فى وادٍ آخر مضطرية من الصورة ولكن أيضًا من فكرة أن هواة المجموعات والبائعين سيلتقون فى قاعة بأجمل أحياء باريس، وأنه يكفى لأحدهم أن يوقع شيكًا بقيمة أعلى من الذى يوقعه جاره حتى ينقل لمنزله صفحات كتبها والدى بخط يده هو شخصيًا. فى لحظة ما، تخيلت نفسى رافعة يدى، رأيت نفسى أقف فى وجههم لشراء ميراثى، أحتكر بحركة بسيطة أغلى المزادات. ولكن الحقيقة كانت هنا بوجهها الآخر المقلق، لم يكن معى أموال مدخرة ولا أية وسيلة لسداد مثل هذا المبلغ. لم يكن أمامى إلا أن أكمل نسج خيالاتى. فى الحقيقة، إذا أردت أن أكون صادقة مع نفسى، فلم أكن أرغب فى امتلاك هذه الأوراق، ولا فى وضعها فى منزلى. فما كان يقلقنى هو رؤيتها تذهب إلى غرباء. علام كانت تحتوى هذه الخطابات؟ عن ماذا كانت تتم؟ هل ترغب أنت فى بيع مراسلاتك الشخصية لأى إنسان؟ للمزايد الأعلى؟

لدى عودتى إلى المنزل، انزويت فى مكتبى لقراءة بقية المقال بتمعن. طرق فرانك علىّ الباب فأخفيت بسرعة الجريدة خلف الكمبيوتر. كان يرغب فقط فى إخطارى

بخـروجـه وبعـودته على العـشـاء. من بين المخطوطات المعـروضـة، مـخطوط الأطفـال التـعسـاء التى تعـد روايتى المفـضلة هـى و الغـريبـة. ويؤكـد الصـحـفى أن الثـلاثة مـجلدات "الاسـتثنائية للغاية" تخضع للتـرتيب الذى أراده روجيـه نيـميـه: مـخطوط أصلى، الصـفـحـات المحـذوفـة والنص المضـروب على الآلة الكاتبـة، كل ذلك فى تجليـد رمـادى منقط بالأبيض تظهـر من خـلاله -فى أمـاكن متفـرقـة- جـملة كـتبت بخط اليـد وهـى مـسـتخلصـة من الجزء الثانى من الرواية: "كان اسمه كلارنس. اسم غريب. اسم رُزق به من قبـيل الصـدفة. كـان جـمـيـلاً جـداً، هـذا الصبى الصغير."

أتساءل تحت أى تـأثيرات اختـار والدى هذا الاسم لابن بطلته أو كما كتب: رُزق به من قبيل الصـدفة. هل حدث قط أن ترك والدى الأمور تسير " من قبيل الصدفة " وهو الشخص الذى فـى السادسة عشرة من عمره، كان قد قرأ جميع كتب مكتبة التقسيم الذى يقطن به؟ هل يمكن أن يطلق اسم على أحـد أبطاله بالوثوق فـقط فى حـدسـه؟ أتابع القـراءة. كان عـدد خطابات والدى سـتة وخـمسـين، وكانت جميعها موجهة إلى صديق هاو للمجموعات (الذى ذهب مـعـه إلى أيرلندا). كـان فى نفس سنه ومن نفس الأصل البـريطانى. كـان مـولعًـا بالكتب، شـغـوفًـا بعلم المحيطات، وممتلكاً نفس سيارة السبـاق التى كانت عند والدى، ولكنه كـان يقـودها بشكل أقل خطورة- على مـا يبدو-ر بما أنه توفى نتيجة للمرض. مكتبته القيمة هى التى يبيـعـهـا حـاليًـا ورثته. كـان مطمح الأنظار فى هذا البيع- تماسَك جيداً فالنص كان يجب أن يكتب بأحرف

أكبر قليلاً مثل فى لاجازيت- ١٥٦٥ ورقة بخط يد لويس- فاردينان المعروف باسم سيلين. وهو سيلين ذاته -أكرر من جديد- الذى راح يدلل على ركبتيه ابنة ناشره الشاب، الصغيرة مارى التى يجدها -والكلام ليس لى- رقيقة وحالمة للغاية. نحن فى الربيع، سأتم ثلاث سنوات.

كتب سيلين لروجيه نيميه يقول: "أريد رؤيتها مرة أخرى. إنها تجعلنى أحلم، أحبها، يا لجمال عينيها! سيكون أمامك منع الكثير من المحبين من الانتحار."

ولإضفاء روح المرح على مقال لاجازيت، رافقه حوار مع ابنة هاوى المجموعات، اكتشفت من خلاله ببعض الإعجاب أنها ليست غاضبة من افتراقها عن مخطوطات الشمال التى لا تذكرها إلا بأوقات سيئة. لقد اختزنت ذكرى "كريهة للغاية" عن كاتبها بل وشبهته وهو مرتدٍ الجيليه المصنوع من جلد الدواب "بشعر الكلبين الممددين عند أقدامه".

وأضافت أن سيلين لم يكن يتواصل إلا للتعبير عن كرهه. "كان دائم التذمر: طفل آخر، طفل آخر من أبناء البرجوازيين. كم أكره الأطفال".

بعد مرور بضعة أيام، تلقيت رسالة قصيرة من الابنة المشار إليها. كانت تخبرنى بالبيع وتقترح علىَّ بلطف شديد الذهاب للاطلاع على الوثائق فى باريس وذلك قبل أن توزع. سرعان ما حددت موعدًا معها. وصلت قبل الميعاد. دخلت فى قاعة امتلأت بموائد خشبية وبخزانات زجاجية حافلة بالملفات. تم تجميع الخطابات فى حافظات ورق بديعة. كتبت الخطابات على أوراق شديدة التنوع بدءًا

من أوراق الفنادق الكبرى ووصولاً إلى ورق البرقيات الأزرق المستخدم فى تلك الحقبة مرورًا بصورة لمارتين كارول، بصور فاجرة أو بورق تغليف المصاصة بيرو جورمان. أول خطاب قرأته كان مزحة موقعة من هنرى بودار، مدير مؤسسة بودار وشركاه، ميدان فاندوم، صانع اللذات الصناعية. قمت بإعادة نقله وكأنى بينما أخط هذه الكلمات بيدى، أستطيع أن أتملكها أو على نحو أفضل أن أخفيها من ورقتها الأصلية، أن أمتصها لعل الورقة تعود بيضاء كما كانت، كتب هنرى بودار، المعروف باسم روجيه نيميه: "إن الآلة التى تقدمتم بطلب شرائها يمكن أن تُمنح لكم بكتالوج طريقة تشغيلها. من جهة أخرى، إحدى مندوبات المبيعات ستأتى لتدلكم على الخطوات الأولى، حتى لا تصيبكم أية خيبة أمل. فى حال رغبتم فى الاحتفاظ بالمندوبة بالمنزل لفترة تتجاوز ثلاثة أيام، يمكننا أن نسعّرها لكم بواقع ٥٤ فرنكًا جديدًا لنصف النهار و٥٥ فرنكًا جديدًا لنصف الليل. وإذا اخترتم النموذج، فأعطى لنفسى حق الإصرار شخصيًا على ألا تلجئوا إلى الاستخدام المبالغ فيه للذة الصناعية، فمندوباتنا لا تتعدين مطلقاً سن الثامنة عشرة."

وتبع ذلك السلامات المعتادة.

بضع صفحات لاحقة، ومن أجل إضفاء نوع من التوازن، وجدت تذكرة مرور مثقوبة على شكل قلب. القطعة التالية كانت محررة على ورقة مال لونها إلى الاصفرار، دُون أعلاها "لانوفال ريفى فرانساز" (NRF)، كتبت فى الـ ٢٧ أغسطس، أى فى اليوم التالى لميلادى. كان والدى يعمل آنذاك مع لويس مال على سيناريو مصعد

كهربائى للمشنقة. انتظرت أن أكون وحدى لاكتشاف محتوى الخطاب. أخذت شهيقًا عميقًا وشرعت فى قراءته مثلما نفتح الهدية، أخذت أحل العقدة بعناية لإطالة المتعة. بعد أن تناول عدة موضوعات، أعلن والدى على هذا النحو وصولى إلى العالم.

"فى الحقيقة، رزقت نادين بطفلة بالأمس. كنت على وشك إغراقها فى السين حتى لا أسمع شيئًا عنها.

إلى القريب.

روجيه نيميه"

إن الجنيات اللاتى يملن على مهودنا لديهن أحياناً تصرفات غير لبقة نوعًا ما. أفكر من جديد فى المسدس الموجه إلى صدغ شقيقى الرضيع وفى التهديد الأخطر المتمثل فى محاولتى الانتحار، هذا الغطس فى السين. وكأنى أردت بعد مرور خمس وعشرين سنة أن أنفذ كلمات والدى، أن أصدّق عليها بالدرجة الأولى بيقين الأطفال الأبرياء الذين يثقون فى كلام والديهم. كانت حركة بسيطة ومهيأة، حركة طالما كررتها فى المساء قبل الذهاب إلى النوم كما يتلو آخرون صلواتهم، حركة تنفخ من الخارج، حركة أقرب لمهمة منها إلى فعل يائس. وكما يقول مدرب الرقصات الأمريكى: لا يوجد سوى وسيلة واحدة لإنجاز العمل، الا وهى إنجازه. وقد أنجزته. تجاوزت السور. لاحظ الحارس الليلى لزورق شيئاً يتخبط فى المياه الرمادية وله أدين بالجزء الثانى من حياتى.

هذه المصادفة بين الطريقة الغريبة لإعلان ميلادى ومحاولتى الانتحار (فلندعو ذلك مصادفة)، تركنى

مضطرية أكثر منى حزينة. فما اكتشفته لا يخلو من الرؤية- اليقظة الروحية التى يصفها اليابانيون على أنها انبهار عيون وإشراقات- ومن المرارة. غلقت الملف وخرجت بعد أن شكرت الرجل الشاب الذى جلب لى المستندات. وددت لو أخذنى بين ذراعيه، لو مرر يده فى شعرى كما ليقول لى إن من الآن فصاعدًا ستسير الأمور على ما يرام وأن الأصعب أصبح الآن خلفى.

مرت الأيام التى تلت اكتشاف خطاب والدى المؤرخ بالـ٢٧ من أغسطس بهدوء أكثر من المتوقع. تحدثت عن هذا الموضوع بإسهاب مع فرانك دون أن ينتابنى الحرج الذى شعرت به عندما دخل على وأنا أقرأ المقال الذى تناول المزاد. كأن شيئاً ما راح يجد مكانه فى هدوء. بالأمس، حلمت مرة أخرى بوالدى. كان واقفًا على سطح بناية باريسية، ممسكًا بقارورة من الكريستال مليئة بالنبيذ. وقع الغطاء من بين يديه وانكسر عند قدمى. ترددت فى أن التقط بقايا الزجاج التى باتت رغم كسرها جميلة وشبيهة بالأحجار الكريمة. خشيت أن أُجرح، رفعت عينى إلى والدى: وجدته رحل، ووقف بدلاً منه إيفان ريبروف الذى راح يعزف الكمان وهو جالس القرفصاء على القمة.

انتفضت من نومى، لقد حان موعد تقديم الإفطار وشرع الولدان فى ارتداء ملابسهما بغرفتهما. فكرت فى شفرة الحلاقة بسلة مهملات الحمام، فى رواية فارس خيالة على السطح لجون جيونو، فى ميشال تورنيه الذى فى "رياح الروح القدس" وصف على هذا النحو روجيه، زميله القديم فى الدراسة: طفل سمين مزود بنضوج مبكر

مخيف، طفل لا يكف عن تناول البسكويت المحتوى على الفيتامينات الذى يتم توزيعه بعد الحرب. أرانى فى الحلم سائرة على رصيف، قد يكون رصيف ضاحية سان أنتوان. هل جاء والدى إلى المستشفى يوم ميلادى؟ تتلذذ والدتى فى أن تروى أننى كنت شديدة القبح عند ولادتى، ربما تكون أعلنت شعورها فى غرفة الولادة وقد تكون القابلة أجابتها: "لا يا سيدتى، لا، إنها شديدة الرقة"، خشية أن تتخلى عنى. يا لها من انطلاقة جيدة للحياة. ولكن ليست كل هذه الكلمات التى نطقتها والدتى هى التى جعلتنى فى حيرة من أمرى بقدر ما كانت سعادتها فى ترديدها علىّ مر السنوات خلال الوجبات العائلية، وكأنها تأثرت بوالدى وكأنها من خلال هذه الدعابة تتحدث عنه. فإذا كنت تعرف والدتى، وثقتها بنا، وحبها لأطفالها خلال مسيراتهم غير المترابطة، فستدرك أن هذا الموقف ليس من طباعها، بل إنه يتعداها. كنت أفكر فى ذلك بينما أنا سائرة بعد إطلاعى على الوثائق التى سيتم بيعها فى المزاد. راودنى الشعور بأنى أطفو داخل جسدى ذاته. كنت أسمع صوت الكعب على الرصيف وأقول لنفسى: أنت التى تصدرين هذا الضجيج، أنت التى تحددين خطواتك، اضبطى طريقة سيرك، حددى سرعته، إنه ليس والدك. أتبع منذ فترة طويلة رجل شاب بسترة كان يتحدث فى الهاتف إلى ثمة كاميل، بلا شك، محبوبته. كان يخبرها بما فعله فى الصباح، بقهوة ماكينة التوزيع الآلى، وبالملفات التى يجب أخذها إلى منزله إذا أراد إنهاء التقرير قبل نهاية الشهر.

كان يقول لها "حبيبتى". كم هى جميلة هذه الكلمة وهى تتطاير فوق السيارات.

عند عودتى إلى المنزل، بحثت فى مكتبى عن نسخة الأطفال التعساء. لم أفتح هذا الكتاب منذ وقت طويل. من المخطوط الذى اطلعت عليه بسرعة البرق فى الصباح ذاته، احتفظت بذكرى خط صغير، دائرى ويقظ. كانت هناك رأفة فى الخط، وبدا لى فجأة من المستحيل أن يكون رجل يكتب بهذه الطريقة قادراً على إشهار سلاح تجاه ابنه الرضيع. خطرت لى فكرة أن أحلل الكتابة الأبوية بواسطة خطاط يدرس شخصية الإنسان من خلال كتابته. فحتى الآن، توقفت عند النصوص، عند معانيها ولكن ماذا عن رسم النص، عن مكانه فى الصفحة، عن إيقاع المساحات البيضاء التى تفصل السطور.

كان والدى فى السادسة والعشرين من عمره عندما نشرت له هذه الرواية. ستة وعشرون عامًا، العمر ذاته الذى شرعت فيه فى الكتابة. يتميز أبطال الأطفال التعساء بعدم توافقهم مع معطيات عصرهم وهى سمة أعرفها جيدًا لاعتيادى عليها فى حياتى. تبدو عليهم علامات العبوس، التشويش، نظرة هائمة فى الفضاء وجلد أصابع أيديهم مقروض حول الأظافر حتى النزف. المثل الأعلى لم يعد يتم البحث عنه فى الهواء، بين راية تخفق وشعر تمثال يتطاير ولكن على الأرض. وهذا هو سبب سيمائهم المتجهمة التى جعلت هؤلاء المغامرين الجدد عجائز قبل الأوان. بعد الحرب، سيصبحون رجالاً عظاماً يعملون فى الكتابة، صناعة الصابون والورق المقوى، هذا الورق المعتم رغم تشابهه بالورق الشفاف الذى

يغلف بعض كتب والدى. كانوا مثل الزملاء يشربون ويتناقشون بطريقة شديدة المهارة ، كانوا يتكلمون بتأنٍ ويلاحظون بنوع من الكياسة الكلمات التى تخرج من أفواههم. كانت خطيبات هؤلاء الأطفال المقطبين دميات متحركة فاتنة يتم التعامل معها على أنها ساذجة دون تصديق ذلك. إنه لتصنُّع، يجب أن نحب، ما ظهر فى البداية على أنه غطرسة ليس إلا عدم مهارة تتحول على مر الصفحات إلى استخفاف ثم إلى حادثة طائرة أو سيارة. وبدا لى فى القراءة التالية أن المجموع مشكل على مسافة، من بعيد وكأن الرواية كانت مستنفذة وعاجزة منذ البداية، وكأن كل شىء سبق الإشارة إليه: زواج الشخص والعصرالذى يعيش فيه، السخرية من البرجوازية، الانحطاط، الملل الذى تمحوه أحياناً قسوة المشاعر. كما تمت الإشارة إلى هذا الوالد الذى اختفى مبكرًا والذى نعجب به إن لم نستطع أن نحبه. الإشارة إلى الوالدة التى تنجح بإيقان فى المزج المستبعد بين الجاذبية والشجاعة، الوالدة التى تتقدم تجاه المدعويين فى ملبسها الرمادى، تلتقط زيتونة وتتناول خمر البورتو. تمت الإشارة كذلك إلى ثوب كاترين الرمادى والعقدة الضخمة الرمادية على فخذها الأيمن. تمت الإشارة إلى دومينيك التى اختارت الرمادى الداكن لوناً لما ارتدته: التايير، القفاز، الحذاء، البلوفر الفاتح والشرائط الملائمة التى طلبتها من صديقتها عبر البريد. تمت الإشارة إلى أوليفيه وعيناه الرماديتان الجميلتان، بركتان صغيرتان من المياه العكرة. لم أسجل كل شىء، فهناك أيضًا سترة رمادية فى البداية، ولكن ليس لدى شجاعة البحث عن الصفحة. وفيما كنت

أقـرأ، نمـت. وقـع الكـتــاب مـن بيـن يـدى وعندمـــا استـيـقظت، قلت لنفسـى: يا إلهى، والدى هو الـذى كـتب ذلك قـبل أن يغـرق فى الصـمت مـع مبـاركـة من هم أكـبـر منه. كـتـب كلمــات مــثل grande nouille, gourdiflote، ابتكر faire la foirinette وفرنَس كلمات إنجليزية لإضفاء لمسـة وردية علـى الرمـدة الغـالبـة. أتشبث بجمـال الأسلوب وبدقـة الصـورة، وكـأن ذلك قـادر علـى أن يمـحـو بضـعـة الأسطر التـى تعلن مـولدى. " فـى الحـقـيـقـة، رزقـت نادين بطفلة بالأمس. كنت على وشك إغراقها فى السين حتى لا أسمع شيئاً عنها."

حتى لا أسمع شيئًا عنها أو حتى لا أسمعها؟

الحـيـاء. يجب أن أطلق علـى ذلك الحـيـاء. يجب إزالة هذه الجملة من رأسى، إزالة فكرة أن، فى غضـون إسبـوع، ســيكون هـذا الخطاب عند غــريب، رجل علـى الأرجح، سيظن هذا الأخيـر أن والدى كـان حـتمًـا مـتـقـد الذهن، وسـيضـحكه كل ذلك، الرضيـع فى السـين وخطاب صـانع اللذات الصناعية.

تمر الأيام.، ويزداد التـعب. الشـعـور بـأن هناك شـيـئًـا كـامنًا، فلنقل أنى أخـبئ نزلة برد، أســتـر الزكـام أسـفل الأغطية. أشعـر بالحياء مثلما يشعـر الطفل الذى تعارك بالخــجل من والديه. ســافــر فــرانك هـذا الصــبــاح إلى ستراسبورج، إنه يجهز لمعرض جديد حيث سيقوم بتجميع من يحملون اسمه واسم عائلته. إنه مشروع طموح سيبقيه أســابيع كـاملة بعـيـدًا عـن المنزل. اتصلت بمدرسـة تعليم

القيادة لإلغاء الدروس حتى نهاية الشهر. لم تبد السكرتيرة اعتراضها. أسمع وقع أقدام على حصى المدخل. ليسا الولدين، إنهما يقضيان عطلتهما فى باريس ولن يعودا قبل نهاية الأسبوع. هناك طرق على الباب. لا أتجرأ على مغادرة الحجرة. أستتر. أقوم بدور المتوفاة. يدخل شخص ما إلى المنزل. إنها ابنة عمتى بلا شك. ستترك لى رسالة صغيرة على مائدة المطبخ وسأندم على عدم نزولى لها. ولما أنزل؟ لأتبادل معها الأفكار مثلما نتبادل الأثواب، تلك الأثواب الخفيفة التى تلائم الصيف. تلك التى لا تحك ولا تضايق.

فى هذا الصباح، أرسل لى صديقى الكاتب خطاباً ، قص لى فيه كيف أنه عندما أنهى روايته قبل الأخيرة، انتابه شعور بالخوف حتى أنه اضطر إلى أن يطلب من جاره إرسالها بدلاً منه إلى الناشر. لم يكن باستطاعته أن تقع عيناه على هذه الصفحات ولا حتى لمسها. كانت تسبب له خوفاً، خوفاً جسدياً، كما طلب من جاره أن يقوم بإخفاء جميع الملاحظات والمسودات والنسخ المختلفة واليوم، اليوم فقط، بعد أربع سنوات من طبعها، شرع فى تصفحها ولكنه لم يتعرف على نصه. شعر بأنه غير معنى.

ادّعيت فى فصل سابق أنى لا أهوى المجموعات وأنى على النقيض، إلا أن مجموعة غريبة تألفت بالدرج الأول من مكتبى: فعلى مر قراءاتى، وضعت جانبًا جميع النصوص التى تتناول الأجزاء المختلفة لتشريحنا: وصنفت النصوص وفقاً للأعضاء بدايةً من أسفل القدم، الرسغ

والجزء الخلفى من الساق وهكذا. وبصبر تام، أعددت قائمة جرد كما نعد المائدة، واضعة كل شىء فى مكانه، كل عضو فى حافظته، كل جارحة فى ملفها. ونقلت جملة بول فاليرى على غلاف أحد الأغلفة: "الرجل ليس رجلاً إلا فى الظاهر، متى انتهى الجلد وشرع التشريح، بدأت الآلات وستجد نفسك محاراً أمام مادة غير قابلة للشرح، مختلفة كل الاختلاف عن كل ما تعرفه وهى رغم كل ذلك الجوهر."

وإذا كانت طبيعة عملى يمكنها أن تتشابه -ولو للحظات متفرقة- مع هذه الآلية التى لا يتم إدراكها والتى أشار إليها فاليرى، لاستطعت أن أشعر بأنى تقدمت قليلاً. ولكن لا، أنا لا أتقدم، أنا أقرأ، أقتطع، أضيف. وكأن بالضبط هذا الجوهر، هذا المتعذر شرحه كان مكتسحًا أكثر من اللازم، وأن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الجلد هى احتواء هذا الجوهر بمنطق وبلباقة. الأمر الذى سيجعلنى قادرة على إعادة تركيب جسد والدى المشتت وإعادة تشكيله للاحتفاظ به عن بعد، لفرط صعوبة الحياة مع هذا الشبح. وبنفس المبدأ ودون التأكد من قدرتى على دمج هذه الملاحظات فى أى مشروع أدبى، يستهوينى منذ وقت طويل التعبيرات والأمثال والأقوال المأثورة التى تتخذ الجسد البشرى بطلاً لها.

"شايلة الهم على راسى"، "بطنى مكركبة"، أو فى الألمانى، "عدم الوقوع على الفم" وهو ما يوازى عند الفرانكفونيين أن يكون الإنسان "طلق اللسان". أقوم بفهرسة هذه الأقوال أيضاً وبترتيبها: "القلب البخيل لا يعرف الكرم"، "اللسان يتجه نحو موضع ألم الأسنان"،

"الشعرة لها ظل"، "لا تظهر رجولتك أمام الأرامل"، ومئات الأمثال الأخرى من العالم أجمع. وعلى غير المتوقع فإن المثل الأخير يأتى من العراق، ولكن فى بغداد فإنه يُفضل أن تقول كما يقترح بالخط المائل معجم الأمثال: لا تظهر خبزك أمام البطون الجائعة.

الكلمات. تلك هى الأشياء التى يروق لي جمعها، إنها لا تزعجنى ولم يحدث قط أن سببت لى هذا الشعور بالاختناق الذى يتولد عندى من تكدس الأشياء. أتساءل لماذا، وبأية معجزة، لا تخضع الكلمات للقاعدة العامة. ربما عندما نطلق اسم على الشيء نتخلص من ثقل العالم، نخففه. كأن بضع الجمل المكتوبة بالأسود على الأبيض ما هى إلا جندى من الرصاص يمتلئ تدريجياً بالهليوم. أتخيل فرسان والدى الخيالة وهم يحلقون فوق الأسطح، وكذا مجموعة أسلحته وهى مزودة بأجنحة صغيرة تخفق بسرعة كبيرة مثل الطائر الطنان. بعض الملفات كانت منذ البداية ضخمة، تلك التى تتناول العيون أو الشعر على سبيل المثال بينما ظلت ملفات أخرى، مثل ملف الذقن، صغيرة الحجم. لا نتحدث كثيرًا عن هذا الجزء من الوجه فى الكتب، وإذا تحدثنا عنه فعلنا ذلك بطريقة عابرة أو فكاهية عندما يكون هناك لغد أو أكثر، عندما يكون الذقن غائرًا أو على العكس طويلاً وبارزًا إلى الأمام، دون الاسترسال فى الوصف. فذقن مدربى الأول على القيادة كان معبراً للغاية. فمتى اغتاظ، ظهرت فى ذقنه مجموعة من النقاط الصغيرة، ليست غمازات ولكنها تشبه أكثر الجلد المترهل. عند ارتكابى أى خطأ، كأن أنير غماز

السيارة، على سبيل المثال، قبل النظر فى المرآة العاكسة، كان يضغط بشدة على الفرامل. وفى كل مرة، كنت لا أستطيع التقاط أنفاسى. فيعيد شرحه بصوته الرخيم ، بصوت معسول ينضح من فتحات ذقنه. لطالما كرهت هذه الطريقة فى التصرف. كانت تذكرنى بتنكيل شقيقى عندما كنا أطفالاً. هذه العدوانية التى سرعان ما يتم سترها وراء ابتسامة أو جملة هادئة. كنت أضيع وقتًا طويلاً لاسترداد هدوئى، وكأن المدرب وهو يضغط على دواسة الفرامل يلمس بداخلى المكان المكتوب عليه "لن تقودى"، وهو أمر أملاه علىّ الخوف من الخطأ بالمعنى الحرفى والمعنى المجازى، الخوف من عدم النجاح ولكن أيضًا الخوف من التسبب بسبب بعدم مهارتى اللانهائية فى حادث يغرقنى من جديد فى وسط الكابوس العائلى.

أين كان يقع هذا التخوف، فى أى مكان؟

لم أستطع تحديد مكانه بدقة إلا أنه كان هنا، فى مكان ما بين أسفل البطن والأعصاب الواقعة أمام الأورطى على مستوى المعدة، وقد تعلو أحياناً إلى القلب، ليس العضو فى ذاته ولكن هذه المنطقة الغامضة قليلاً التى نقصدها عندما نقول أشعر بالرغبة فى القىء، لأن الخوف هو أيضًا الشعور بالغثيان، الغثيان الذى كان يصيبنى كل صيف فى حافلة سان بريوك، الغثيان الذى يتم القضاء عليه بطلقات من السكر الأبيض المبلل فى كحول النعناع، وكأنه كان يجب فى كل مرة عند المرور بالقرب من المقابر التى دفن بها والدى التعبير بهذا الفعل عن ما عجزت دوماً الكلمات عن وصفه. لا يتلخص

الخوف فقط فى النفس المقطوع -كما أشرت آنفاً- ولكن أيضًا فى الساقين المشلولتين وفى العجز عن النطق أو الصراخ لحماية النفس من الخطر. فأحبالى الصوتية تعتبر جزءًا من هذا المحيط الغريب الذى يربط أعلى وأسفل الجسد فى نفس القصور الداخلى العميق عن مقاومة العنف عندما يكون موجهًا ضدى. حدث وأن تعرضت عدة مرات -بينما كنت مراهقة- فى المترو إلى اعتداءات من قبل رجال كانوا يحاولون لمسى أو استثارتى بألفاظ بذيئة. لم أكن أستطيع فعل أى شىء سوى الهروب إلى الإنكار. لم أكن أرى، لم أكن أسمع، لم أكن أشعر. كنت أظل منتصبة فى استقامة، العينان هائمتان فى الفضاء، أصارع ذاتى بدلاً من أصارع الآخر حتى لا يظهر شىء من الاضطريات التى تختلج بداخلى، بمجرد وصولى إلى البيت، كنت أجهش فى البكاء وحدى فى الغرفة. تقهقر هذا العيب بفضل مواجهتى لمشاهد على نفس الشاكلة بعد مرور بضع سنوات - فمن كثرتها أعددت نفسى لها، تدربت عليها وأنا واقفة بمفردى فى هذا الركن، ولكنى أحتفظ دائمًا بأثر هذا الخجل المرضى. لم أقو قط على أن أقول لهذا المدرب على سبيل المثال الأثر الذى يحدثه فى نفسى هذه الفرملة العنيفة. استأنفت الدروس بمثابرة. لم أشعر بالنتائج المدمرة التى تركتها على مجرى تعليمى إلا بعد أن ذهبت لمدرسة أخرى لتعليم القيادة. فمدربى الجديد الذى يتمتع بصدر كبير ونظرة عطوفة شخّص منذ الدرس الأول العيب الأساسى لسلوكى أمام عجلة القيادة: ما إن تواجهنى أية صعوبة، أستبقى الخطر بوقف تنفسى كما لو أنى أستعد لتلقى ضربة فى المعدة.

علمنى أن أتنفس قبل اتخاذ أدنى مبادرة. كان يقوم بذلك بمرح ومثابرة حتى تحول الأمر فى النهاية إلى عادة. كلما وصلنا إلى مفترق طرق معقد، كان يذكرنى قائلاً: "نفس صغنون" وكذلك قبل أن نلجأ إلى زيادة السرعة، "نفس صغنون" وأيضًا إذا كانت سيارة على عجلة من أمرها تعطى لنا إشارات بالكشافات، " نفس صغنون". وهكذا كان لديه مجموعة كاملة من التوجيهات المشفرة المأخوذة أساساً من اللغة اللاتينية الخاصة بالمطابخ وصولاً إلى اللهجة الإقليمية لمنطقة نورماندى مرورًا بالاستشهادات المستعارة من الألعاب التليفزيونية والتى لم أكن أفهمها كثيرًا نظرًا لعدم امتلاكى تليفزيون، ولكنها كانت رغم ذلك تضحكنى نظرًا لأنه ينطقها بجدية عالية: أعتقد أنه غلبنى. بدأت أجد لذة فى القيادة، تعلمت الكثير منه ولكن بالتأكيد ليس بالقدر الكافى لاجتياز الاختبار.

منذ أمس، استأنفت ذهابى إلى مدرسة تعليم القيادة. مع إليو ومارلان، نكتشف مغامرات هيرموكس تانتاموك. نقرأ كل بدوره بضع صفحات بصوت مرتفع. هذه هى القاعدة الجديدة للعبة.

كانت هناك آلة توزيع مياه فى نهاية الغرفة. اتجهت نحوها وأنا متظاهرة أنى من مرتادى قاعات المزادات. "أنت معتادة على ذلك"، ظللت أكرر فى نفسى هذه الجملة محاولة أن أتخيل صوت فرانك. "كثيرًا ما تأتين إلى هنا، أنت تدونين الملاحظات فى هذه المفكرة الصغيرة، ربما تكونين صحفية أوشخصية مولعة بالكتب، لم نطلب منك شيئًا عند الدخول، بل واستطعتى أن تتصفحى قائمة القطع التى سيتم عرضها فى المزاد، ليس هناك ما تلومى

نفسك من أجله، لا يريد أحد إيذاءك، ليس لديك تقريبًا أى أموال فى حسابك فى البنك وما من أحد يعلم ذلك، أنت مرتدية ملابس جديدة بل ملابس ملائمة، حذاؤك يلمع، ليس هناك سبب لطردك، لستِ محتال أقصد محتالة، لك حق المجىء إلى هنا، واجب المجىء إلى هنا وفاءً لذكرى والدك (فى النهاية دعونا لا نبالغ)". جذبت كوب بلاستيك وملأته بمياه باردة، كانت يدى ترتعد، ملأت كوبًا آخر، فتناول المياه كان مفيدًا بالنسبة لى. لم تكن هناك سلة قمامة على مقربة منى. وضعت الكوب أعلى آلة توزيع المياه بشكل غير متوازن ولكنه ثبت، لم يقع، أو ربما سيقع. استدرت بسرعة حتى لا أراه وهو يسقط.

حافلة كانت القاعة، راح الناس يتحدثون، يبدو أن الكثيرين منهم يعرفون بعضهم البعض. كانت جميع المقاعد محجوزة، فتوجهت للجلوس على أدراج سلم كان يفضى إلى المكاتب. جاءت مجموعة من الشباب لا غبار عليهم للجلوس أمام مجموعة الهواتف المصطفة على موائد على يمينى، فى المستوى الأدنى. وقف رجل بسروال أزرق مثل سروال البستانى وقميص أبيض، يختبر مرونة قفازه بالقرب من المكتب المركزى، بينما راحت شقراوتان فى الصف الأول تقارنان لون أحمر الشفاة على ظهر أيديهما. جذب المثمن بحركة خاطفة بابيونه، وأعقب ذلك افتتاح الجلسة والإعلان عن عدد القطع، ٢٥٠ على ما أعتقد، بالإضافة إلى أشياء أخرى لم يتسن لى سماعها. وأخيرًا فرض الصمت نفسه وتم عرض الكتاب الأول للتثمين. كانت نسخة أصلية وفاقدة الرونق بعض الشىء لنص أونتونان أرتو الذى كتبه على ورق فاخر شبيه بجلد

الماشية ومصنع من أجود أنواع الخيوط. وبسرعة البرق، رفع أحد الأشخاص إصبعه وتلاه آخر ثم آخر كما لو أن كل ذلك كان مرتبًا مسبقًا:

- هيا، بنشاط، آخر كلام، ما من أحد يزايد؟

لا، ما من أحد يزايد. ارتمت المطرقة وانتقلنا للقطعة التالية وهى، وفقاً للمثمن الفصيح والخبير، مؤلف فريد ونادر بعنوان المتشيطنون أو جميع الشياطين ليسوا من العالم الآخر. كاتبه، ثمة بربيجيه دو تارنوف دى تام، قضى حياته فى مواجهة القوى المضادة التى كان يدفعها بالانتقادات والنباتات الطبية. ثم جاء دور كتابين لليون بلوى. هاج الحضور بالقرب من الباب. كنت أتوقع جمهورًا أكثر جدية، أكثر وقارًا. نعم. فكل ذلك يفتقد إلى التركيز والتماسك على حد تعبير ممثلة لافارم دى بيوسون، فحركة الرجال المرتدين الملابس الزرقاء هى وحدها التى أضفت نوعاً من التناغم على القاعة. كانت حركاتهم محددة، يقدمون القطع بنفس الاهتمام، وبنفس الجدية سواء كانت طبعة بلا قيمة تجارية أو مخطوط أصيل. أحببت هذه الطريقة فى العرض: عدم التقييم، كل قطعة من المجموعة كان لها أهميتها، تاريخها، نفعها. المكتبة ما هى إلا جسد مكون ليس فقط من الدعابات بل وأيضًا من أمهات الكتب التى تستند كل منها على الأخرى وفقاً لترتيب لا يدين بالكثير للترتيب الاقتصادى. وكانوا على علم بذلك، الرجال ذوو الملابس الزرقاء.

وقفت مجموعة من المشترين، التى بدا عليها عدم الاهتمام بمراسم البيع، تتحدث بصوت هامس فى نهاية

القاعة. أخرج واحد منهم علبة أقراص محلاة وعرضها على الآخرين، بينما كان يتم بيع ديوان أشعار الشاب أندريه بروتون: مفكرة في غلافها الأصلي من الجلد الصناعي الأسود المزود بحافة ذهبية من اثنتين وعشرين صفحة كان يمتلكها بول إليوار. كان من المقرر أن يُعرض مخطوط الأطفال التعساء في نهاية البيع، بعد مخطوط الشمال الخاص بسيلين والأعمال المنتظرة لهنري ميشو. كان الجالسون على المقاعد يشعرون بحر شديد فيما يبدو. فلم تكن تمر خمس دقائق حتى ينزع أحدهم الصديري والآخر السترة، الأمر الذي كان يثير في كل مرة أمواج من الحركات المزعجة بين الصفوف الضيقة المتراصة. ظللتُ على هذا النحو ساعة بأكملها أرقب ما يحدث حولي دون أن أتحرك من على درج السلم خشية أن يطلب أحد مني أن أترك مكاني لأسباب تتعلق بالأمن أو باللياقة. كنت أجلس على الطريق المؤدي للحمام وهو المكان أيضًا الذي يقصده الناس لإجراء اتصالات هاتفية أو للاطلاع على الرسائل. وقفت أمامي امرأة شابة ارتدت الأبيض ثوبًا. كان تمايل شعرها الطويل للغاية متى هزت رأسها يذكرني بإعلانات شامبو البيض التي كنا نشاهدها في السبعينيات. أستطيع من خلال القائمة التي تمسكها متابعة سير المزاد، لانزال بالكاد في ثلثه الأول. بهذا المعدل، فإن الأشياء التي تخص والدي لن يتم عرضها قبل نهاية فترة ما بعد الظهيرة. قررت الخروج لاستنشاق بعض الهواء. شعرت بنظرة السيدة المرتدية الأبيض تتبعني حتى الباب وعندما استدرت ضحكت لي في ثقة. فقلت لنفسي: "ملاك هي هذه المرأة، ملاك".

لم أكن قد لاحظت عند وصولى أن واجهة القاعة خُصصت حصريًا للمزاد. تم عرض، بين ملفات عديدة، الصورة الملونة التى ظهرت فى لاجازيت دى كولوكسيونير والملتقطة على القارب. تبدو وكأنها مستخرجة من فيلم. كان هناك شىء خيالى فى زرقة المياه، شىء مماثل للإنارة الشديدة التى تميز الصور المعروضة بداخل السينما. حتى الأشخاص كان يبدوعليهم التصنع، كما لو أن يدًا غريبة نصبتهم على شبكة صيد عائمة فى أوضاع زُعم أنها طبيعية ولكنها على الأرجح من أكثر الأوضاع التى لا يشعر فيها الإنسان بالراحة. تذكرت السكين فى المياه لرومان بولينسكى، تخيلت والدى كبهلوان يسير على الحبل فوق أسطح المستشفى التى ولدت بها. جلست على القارب امرأة شقراء مرتدية نظارة شمس تنظر إلى شخص لا نرى منه سوى ذراعه الممسك بالدفة. تم التركيز على حبل كان يعبر كوبرى ويفصل بين الثلاثة أشخاص، نعم، الحبل كان شديد الوضوح أما الباقى فكان مهتزًا بعض الشىء وكأن المصور أراد إبراز الكلمة الممنوعة. كان والدى يبدو طويلاً. فهمست متسائلة: كم كان يبلغ طول والدى فى الحقيقة؟". من يتوارى وراء الكتاب هو أبى والسؤال التقليدى أعاد فرض نفسه متبوعًا بالاستطرادات. "ما الشعور أن يكون لديك أب؟" والد بالبعد الثالث: صوت ونظرة وألوان تتغير؟ ماذا كان سيكون مصيرى إذ لم يتوفى والدى مبكرًا؟ هل كنت سأحصل على رخصة قيادتى؟

استغليت فرصة مرور الفئران لبرنار فرانك (نسخة ممزقة فى تجليد من البلاستيك الزجاجى) كى أعود إلى السلم. يحتل برنار فرانك مكانة مهمة فى الأسطورة

العائلية: إحدى سيره المنشورة فى مجلة ليتون مودرن هى التى أعطت اسمها لمجموعة فرسان الخيالة. حيث السيدة المرتدية الأبيض عاودتنى بغمزة من عينيها. عندما اقتربَت من سور السلم لتتركنى أمر، لاحظت أنها ترتدى حاملة صدر من الدانتيلا الرقيقة جدًا. تتابعت الكتب فى لائحة لانهائية بدءًا من شارل دى جول ووصولاً إلى بوريس فيان مرورًا بأنايس نين وريمون كينو. إحدى الفتيات اللاتى فى المستوى الأدنى، إحدى اللاتى يتابعن المزاد عبر الهاتف، لم تكف عن الهمس فى أذن جارها. تساءلت عما يقولونه. بدا على الرجل الشاب إنه واقع فى غرامها. وإذا بجلبة تحدث فجأة، لقد تم الإعلان عن مخطوط للويس-فاردينان سيلين. بعد تقديم العمل والقطعة، قرأ المثمن جملة امتدت على الأربعة أجزاء المجلدة من ميرشيه: "دكتور ديتوش4/ شارع جيراندو/ لم يصبنا على ما يبدو/ بأية عدوى يمكن تناقلها".

علت الضحكات. بدأ المزاد بمبلغ ٢٨٠٠٠٠يورو ووصل فى خلال بضع دقائق إلى سقف الـ, ٣٦٠ ارتمت المطرقة، حدث هرج ومرج. سلمت نسخة الشمال للمشترى. قام العديد من الأشخاص تاركين مقاعدهم شاغرة ومن بينهم رجل الأقراص المحلاة. وجدت نفسى فى وضع غريب. من جهة، أراحنى رؤية أن مخطوطات والدى وخاصة مراسلاته سيتم عرضها لجمهور أكثر خصوصية ومن جهة أخرى أقلقنى أن يتم ترخيص أسعارهم. وكأن ذلك يطرح من جديد تساؤلات حول جدارته ككاتب وبعيدًا عن عمله، يثير مجددًا صفته كوالد.

تم الآن إنارة السقف الزجاجى بلمبات نيون بديعة تم تعليقها فى كابلات من الصلب. كنت منهكة، ربما

مستسلمة أو غائبة. نعم غائبة. كنت أشعر أنى خارج جسدى مثل الطفل الذى يتم وضعه فى عائلة مضيفة. حاولت أن أركز على وجه المثمن، راودنى الإحساس أن حركة شفتيه لا تتوافق بالضبط مع الكلمات التى يتلفظ بها.، كأنى أشاهد فيلمًا مدبلجًا بطريقة سيئة. أية لغة تلك المستخدمة فى الجلسة؟ لمن هى موجهة هذه الجمل المشفرة؟ يقبع فى المستوى الأدنى عالم لا أستطيع النفاذ إليه. فكرت من جديد فى مؤلف أول كتاب تم عرضه فى المزاد، هذا التارنوف دى تام الذى كان يرى وراء الممرضات وأطباء المستشفى متشيطنين دنيئين حاملين الأذى. ما حقيقة هذا الرجل المرتدى بابيون؟ وهؤلاء الأشخاص المنظمين، ماذا يخبئون خلف ملامحهم البشوشة؟ وقع شىء ما على يدى. نظرت إلى أعلى، لا، لم تكن تمطر بالطبع داخل القاعة: ليست مياه تلك التى أشعر بها على جلدى بل دم، دم يسيل من أنفى. هممت بالذهاب إلى الحمام، مبعثرةً بحركة واحدة أحلام اليقظة. لم يكن هناك ما يمكن انتظاره من الخيال، فما من شىء قادر على حماية خطابات والدى من تشتتهم القادم. لم يكن الأمر أكثر تعقيدًا من ذلك: الإيماءة بحركة، رفع الإصبع، إظهار الرقم، التوقيع على الشيك، الحصول على التصريح. يسيل الدم ببطء. استدارت السيدة ذات الرداء الأبيض ونظرًا لتفهمها السريع للوضع، أشارت إلىَّ بالصبر. لاحظتُ وجود بقعة حمراء بالقرب منها على الدرج. وددت أن أنبهها حتى لا تتسخ، أن أقدم لها اعتذارات ولكنها سبقتنى ومددت إلى علبة مناديل ورقية

طُبع عليها صور طريفة لأبقار ملونة. لم أتوقع هذا النوع من النزوات من امرأة مثلها. تذكرت جدى لوالدتى، الذى كان يدعونى "السمينة" وإناء اللبن المعدنى وغطاءه المربوط بسلسلة. سألتنى جارتى إن كنت بخير وإن كنت أرغب فى أن ترافقنى. اتجهت بعض النظرات نحونا. أخفضت قليلاً جفنى كعلامة رفض. تم الإعلان عن خطابات والدى، ثم بيعها عبر التليفون. كانت الحمامات نظيفة نظافة لا تشوبها شائبة. قطر الدم على الطلاء الخزفى للحوض. لم يكن يؤلم ، شأنه شأن أن نقطع شرايينا تحت الصنبور، مثلما أكدت عليه مربية سان كيه بورتريوه. من كان هذا الصديق الذى تحدث معه عن الانتحار؟ هل كانا على علم بمحاولة والدى؟

عندما عدت إلى مكانى على السلم، كان مخطوط عظيم إسبانيا قد انتقل إلى شخص آخر وكذا مخطوط الأطفال التعساء. انتهى المزاد، وبلطف شديد، اقترحت علىَّ جارتى أن نذهب لتناول شراب فى المقهى المجاور، كانت القاعة شديدة الحرارة. جلسنا إزاء بعضنا. تذكرت ابن سانسياريه، فرواية حاملة الرسالة،التى كتبتها والدته ونشرتها عند جاليمار لم تكن ضمن القائمة.

قالت السيدة الشابة وهى مبتسمة:

- عادة تكون المزادات أكثر غرابة وبهجة.

قطبت وجهى. ما الذى يستوجب الضحك؟ لقد شتتنا للتو كاتب قضى هاو للمجموعات حياته بأكملها فى جمعها. فتفوهت أخيرًا:

- أنا شخصيًا أجد هذا كئيباً.

نظرت إلى أسفل. كرهت نفسى لأنى أجبت عليها بطريقة شديدة العدوانية. ففى الواقع، أنا التى كنت أشعر بالاكتئاب، أنا وقد ثبّت فى أنفى منديلاً احمر طرفه. أصرت على دفع المشروبات. افترقنا أمام المقهى دون أن نتبادل عناويننا. كثيرًا ما أفكر فيها، فى جمالها، وفى هذه البقعة على الدرج، بالكاد بجانب سروالها الأبيض.

لم أنزف من أنفى منذ وقت طويل، منذ طفولتى على ما أتذكر. فى المدرسة، أحتفظ بذكرى بالأحرى ممتعة لهذا الدم الذى يسيل بغتة. كان ذلك يبهر الجميع، و يجعلك تحرزين نجاحًا جميلاً بلا عناء أو إدعاء. كانت مندوبة الفصل تصحبك إلى العيادة، وكنت تعمدين ميل رأسك نحو الأمام للعب دور "عقلة الإصبع"، بينما كانت تمثل ألواح الممر دور الغابة.

عند العودة إلى المنزل، كان ذلك أول شىء تقصيه، وكأنه اكتشاف. باستخدام عصى تنظيف الأذن، كنا نقوم بإزالة الآثار الأخيرة للنزيف وذلك ببطء شديد. كنا ننقع قميصك فى المياه الباردة، نعم، كنا نرتدى قمصانًا فى المدرسة الابتدائية، وكان هناك جدار يفصل الصبية عن الفتيات دون أن يترك لنا أى أمل فى فهم سبب هذا التقسيم. هل كان لدينا على الأقل فضول المعرفة؟ لا أظن ذلك. هكذا كان الأمر، الفتيات من جهة والصبية من جهة أخرى. كان أمر مسلمًا به. كنا نعيش فى عالمين متوازيين ولا يبدو أن أياً من الطلبة كان يعانى من ذلك. فالحضانات فقط هى التى كانت مشتركة ورغم ذلك لا

أحتفظ بأية صورة لشقيقى وهو يلعب معى فى فناء الاستراحة. الذكرى الدقيقة الوحيدة التى بقيت معى من هذه السنوات هى لقب "ملكة الصمت" الذى مُنح لى فى قاعة الدور الأرضى. أرى بوضوح الباب، الممر الذى يفضى إلى هذه الغرفة والنوافذ العالية بألواحها الزجاجية الصغيرة. وإذا كنت نسيت وجه واسم المدرسة، فإنى أتذكر احمرار وجهى عندما توجتنى أمام الفصل بأكمله. فلعبة الصمت التى تعلمتها بفضل خطاب قارئه (لتكن شاكرة) ما هى إلا تقنية غالبًا ما يلجأ إليها المعلمون لإعادة الهدوء ويتم استخدامها بغير دقة على أنها منهج أو على الأحرى سلوك طورته ماريا مونتسورى. التوجيهات البسيطة المعطاة إلى الأطفال تتلخص فى أن يصدروا أقل ضجيجاً ممكناً وهم يرتبون ألعابهم مثلاً أو المقاعد أو وهم ينتقلون عند مناداة أسمائهم. شيئًا فشيئًا، يحل الصمت ويشرعون فى سماع صخيب الشارع، الفصول الأخرى والأصوات الناجمة من جسدهم ذاته، قلبهم، تنفسهم.

وتكتب التربوية: أن عند هذه النقطة يحدث شىء شديد القوة، شديد الخصوصية. الا وهو: أننا نتاخم الروح الطفولية.

هل هو شعور مماثل الذى راودنى فى صالة الدور الأرضى؟ أحب اعتقاد ذلك. وهو الشعور ذاته الذى انتابنى، بعد مرور بضعة أشهر، عندما تلقيت هذا الكارت البريدى من والدى الذى كتب يسألنى فيه بالأحرف الكبيرة:

ماذا تقول ملكة الصمت؟

إذا كـانت تلك الجـملة قـد أثرت فى بقـوة، وإذا كنت أشعر بالحاجة إلى نقلها مرات ومرات، فذلك لأنها كانت لغزًا يستحيل فك طلاسمه للفتاة الصغيرة التى كنتها، لغز قاس وجذاب يلخص كل صعوبة مهنة الطفل. لغز كان فى تلك الحقبة، يُصاغ على النحو التالى: ماذا يمكن أن تقول ملكة الصمت دون أن تفقد لقبها ومحبة أبيها؟

أو أيضًا: كيف يمكن التحدث وعدم التحدث فى آن واحد؟

كنت بين شقى الرحى: واقعة فى مكيدة الذكاء الأبوى؟

دون أن تتـوقع، قـدمت لى والدتى فى العـام التـالى وسائل التوفيق بين هذه المتطلبات المتناقضة. فبتلقيبها لى "سيران رجال الإطفاء" للسخرية من نبرة صوتى الثاقبة، أوحت لى بفكرة ممتـازة. ألم يكن الحل الأبسط هو الانقسام إلى جزأين مثل عروس البحر؟ أن أكون فى آن واحد امرأة وسمكة، واحدة تغنى والأخرى تصمت؟ فالسمك أبكم وكذلك الزرافة التى ستصبح فيما بعد الشخصية الرئيسية لروايتى الثانية. هنا يكمن منطق يثير الضحك لفرط ابتعاده عن أى اهتمام أدبى. ويمكننا أن نقرأ هذا التسلسل بطريقة أخرى، وأن نكتب جملة طويلة تربط بين نص عرائس البحر والنصوص الأخرى التى تتناول الإباحية، جملة تخبر بقصة بروز جسد وإعادة توحده. يمكننا أن نتحدث عن انبثاق الجسد فى روايات العشرين سنة الأخيرة وسندهش من معرفة أن العديد من الأمثلة ستثبت هذا الحدس. كل شىء يبدو بسيطاً للغاية

عندما نعتبر الكتب على أنها سلسلة متوالية من المشاهد وليس على أنها وحدات منتهية، مغلقة على ذاتها وعندما نسلّم بأن كُتَّاب هذه المؤلفات تربط بينهم أسئلة تتجاوزهم.

وحتى أصل إلى صياغة هذا الافتراض، لجأت إلى طرق غير مباشرة خطرة. فمنذ صغر سنى عكفت على الاختلاء بنفسى، منذ طفولتى وشبابى المبكر وحتى الغطس الكبير فى السين. كنت فى آن واحد الفتاة الصغيرة المليئة بالحياة التى تغنى بأعلى صوت فى أعياد الميلاد والطفل الحزين الذى يصيبه الملل. كان الكائنان يعيشان على قدر المستطاع تحت اسم واحد. كنت كثيرة التفكير فى الموت، موتى أنا، يجب أن أحدد وليس موت والدى، وكان خيالى جامحًا.

أجد هذه الجمل فى نص تم كتابته منذ خمسة عشر عامًا وأعتقد أن من المهم إعادة كتابتها هنا.

قتل النفس لكتم الصوت، بقدر تشابه تصريف الفعلين.

قتل النفس لعدم خيانة أحد والوفاء بالعهد مثل حفظ اللسان لحماية سر منيع بالأسلحة التى تمتلكها، سر بلا دليل، سر مغلق بعقدتين فى سؤال بسيط، سؤال من ست كلمات يجبرك يومًا بعد آخر وفى نفس الاندفاع على البحث وعلى الاستسلام.

على البحث لتبقى حية.

على الاستسلام لتبقى حية.

عقب محاولتى الانتحار وما تبعها من آثار جانبية، أخذت القصة منحنيًا معقداً. فلم يعد من الممكن بالنسبة لى أن أعتمد على الموت لحل المعادلة الأبوية. لقد فشلت ولم أعد أعتقد به. كنت قد فقدت الإيمان. يجب إيجاد طريق آخر، طريق غير ممهد، طريق على انفراد، حيث كان يصعب علىَّ التواجد مع الآخرين، لأنهم أى عائلتى وأصدقائى، يرغبون فى فهم ما حدث لى، سبب هذا الغطس، وكنت أجد من المستحيل أن أشرح لهم ما لم أفهمه أنا شخصيًا. كان بعضهم ساخطًا ويلمح فى حديثه إلى الابتزاز والتصنع، انتابنى الشعور إنهم يكرهوننى لأنى ظللت على قيد الحياة. بدت الكتابة لى وكأنها الوسيلة القادرة على مساعدتى فى الخروج من المأزق وعلى انصياعى دائمًا وأبدًا للتوجيه الأبوى المزودج. أو ليس الروائى هو من يقص الحكايات فى صمت؟ أو ليس الروائى هو من يتكلم عندما يكون صامتًا؟

فى هذه الفترة، لم تكن المسألة تتعلق بالرواية, فلم أرغب قط فى أن أواجه والدى بهذه الطريقة، لم أكن أشعر فقط أنى غير قادرة على فعل ذلك بل وأيضًا غير راغبة فيه، فلجأت إلى منعطف (أو هو ما اعتبره اليوم منعطفًا) وإذا رحت أنزوى كل يوم تحت قباب لابيبليوتك ناسيونال (المكتبة الوطنية)، فكان ذلك بهدف كتابة بحث دكتوراه، وهو عمل نلت من أجله منحة وكان له ثقل لا يمكن إهماله فى قرار استئنافى الدراسة. كان علىَّ أيضاً كسب رزقى ولم أكن أجد فى نفسى شجاعة الذهاب للاستماع إلى جلسات موسيقية أو التمثيل على خشبة المسرح.

استخدم كلمة "بحث" وليس "رسالة" لأنها تفسر بالضبط الحالة النفسية التى كنت أمر بها آنذاك. لم يكن لدى أية رسالة أدافع عنها. كان الأمر بالنسبة لى يهدف فقط إلى أن أضع نفسى بمنأى، بين قوسين إذا صح التعبير، و إلى أن أكتشف من جديد عبر كتب الآخرين وحدة حتى ولو كانت ظاهرية. كان بإمكانى بلا شك اختيار أى موضوع بحث ولكنه لم يكن أى موضوع بحث: لقد انكببت على أسطورة عروس البحور. واتتنى هذه الفكرة بعد استماعى فى المذياع لهذا الأستاذ الجامعى الذى يدرس شخصية مصاص الدماء "فانباير" عبر العصور المختلفة. كانت هناك مادة تدعو للتفكير.

كنت أذهب إلى المكتبة مثلما نذهب إلى المكتب، أطلب المقعد ذاته، وأتناول الطعام فى المكان ذاته: حساء يابانى فى الشتاء، وما إن يتحسن الطقس ساندوتش على دكك ميدان لوفوا. كنت أحب مشاهدة الآخرين وهم يتناولون الطعام، كنت أرقبهم خلسة، كنت أحب رؤيتهم وهم يمضغون، يشربون، يلتهمون ويلعقون شفاههم. كنت أحب النظر إليهم وهم يتلذذون بأفواههم أمام الجميع، غارقين فى هذه البراءة العجيبة التى يمنحها لهم الشعور بإرضاء حاجة أساسية خالية من أية نرجسية. بالنسبة لهم كان الأكل، هذا الانتقال من الخارج إلى الداخل، أمرًا مسلمًا به رغم أنه يبدو لى إباحى بطريقة غريبة.

قرب الساعة الثانية، كنت أعاود العمل، أقرأ كل ما يقع تحت يدى ، بدءًا من الروايات ووصولاً إلى الكتب التى تتناول اليونان القديم. كنت أدون الملاحظات، لا تزال كثير منها فى كرتونة فوق الدولاب. كانت تطيب نفسى للاطلاع

على مجموعات بطاقات البحث القديمة المخزنة بالبدروم، خاصة المجموعات المتعلقة بالموضوع. كنت أسحب الأدراج الخشبية، أجلس على مائدة فى المؤخرة، وأتأنى فى القراءة، فالمضى سريعًا لم أكن أقدره. كنت أهتم كثيرًا بالاستطرادات، الكلمة تدعو أخرى والساعات تمر بخفة فأكاد لا أشعر بها.

كنت قليلاً ما أنام بالليل. فالليل كان صعبًا.

بعد مرور عام، وبعد تجميع جزء مهم من المراجع العلمية، والتصديق على خطة المذكرة من السلطات الجامعية، أدركت أننى لن أقوم بتحرير مئات الصفحات التى ستظل نائمة لبقية حياتها على أرفف مكتبة حتى ولو كانت الوطنية. بالإضافة إلى ذلك، كانت علاقتى بالمشرف الجديد على الرسالة أكثر من بعيدة، إذ كان يهتم بمؤلفاته المطبوعة أكثر من اهتمامه بأبحاث طلابه إلا إذا كان يستطيع استخدامها فى أعماله الخاصة. ماذا سيعود علىّ "بالنفع أن أحصل على شهادة إضافية؟ كى أعمل فى أية وظيفة؟ كان ذلك عندما قابلت على الكوبرى (كوبرى من جديد بالتأكيد) ثمة رجل يدعى أودجن تنطق (iudjine) كان ينتظر مثلى بداية الألعاب النارية، إذ كنا فى الثالث عشر من يوليو. كان يرتدى قبعة وسروالاً فاقع اللون. كان بريطانيًا، ناشرًا وودودًا للغاية. بدأنا الحديث، وسرعان ما أبدى تحمساً واضحاً لطبيعة "ما أقوم به فى حياتى" ولفكرة أن شابة مثلى تستطيع أن تقضى أيامها فى قراءة قصص الـ mermaids. كان يجد ذلك خياليًا ولم أعد أدرى أية صفات أخرى استخدمها، فى النهاية نستطيع القول إن حماسه كان معديًا. عندما حانت لحظة فراقنا،

أعطانى عنوانه كى أرسل له ملفاً يمثل الخطوط العريضة لعملى مرفق به بضع أيقونات. هل كان جاداً فيما قاله؟ قال إنه مهتم للغاية بفكرة نشر عمل مزود بصور كثيرة حول أسطورة عروس البحار.

سافرت فى عطلة وعند عودتى كانت هناك رسالة تنتظرنى على جهاز الرد الآلى. إنها من فرانسواز فيرنى فى ذلك الوقت ناشرة عند جاليمار، كانت تعرض علىَّ أن نلتقى، فقد حدثها صديقها أودجن عنى.

بعد مرور عدة أيام، فى السادس والعشرين من أغسطس الذى أتممت فيه ستة وعشرين عاماً كى أكون دقيقة، كنت على موعد مع فرانسواز فيرنى بشارع سيباستيان-بوتان. كانت لا تتشابه كثيرًا مع ما يمكن أن نتوقعه من مديرة أدبية ظريفة فى التقسيم السابع بباريس، الأمر الذى سرعان ما أعطانى ثقة بالنفس. قرأت خطتى قراءة سريعة، نظرت إلىَّ باهتمام عبر دخان سيجارتها، أمالت رأسها قليلاً على جنب، أبرزت شفتها السفلى ثم وكأن الأمر مسلم به، عرضت علىَّ أن أكتب مبدئياً قرابة ثلاثين صفحة عن أسطورة عروس البحور، ولكن أن أجعل الفاعل للمتحدث المفرد فى هذه المرة. وهو ما فعلته بلا طموح أكثر من تلبية مطلبها. لم تلق أى عناء فى اللقاء الثانى فى إقناعى أن هذه الصفحات الأولى ما هى إلا بداية شىء يمكن تسميته برواية.

الممتحن ما هو إلا امرأة شابة شقراء، يغلب عليها طابع الحزن، شغلها الشاغل هو التحسيس على سروالها بباطن يدها ورغم ذلك، تميزت تعليماتها بالوضوح. لم تحاول قط أن توقعنى فى مكيدة خلال الاختبار. أمسكت

شعرها بمشابك مسطحة تشبه التى كنت أضعها عندما كنت فى المدرسة الابتدائية. يمكن بسهولة رؤية الشامات الممتدة على رقبتها، ورغم كون شحمتى أذنيها مثقوبتين إلا أنها حتماً لا تضع دائمًا أقراطاً فى أذنيها، فالثقبان يكادان يكونان مرئيين، فهما شبه منغلقين.

أقود بهدوء، أتنفس بهدوء، يداى باردتان قليلاً ولكن فيما عدا ذلك أشعر أنى أتحكم فى زمام الأمور. فخورة أنا للغاية بنفسى لأنى نجحت فى ركن السيارة بالعودة إلى الوراء على الجهة اليسرى، أضغط جيداً على الدبرياج قبل تغيير السرعة وأقف فى اتجاه مواز. نظرة سريعة بينما أفتح الباب قليلاً: العجل فى مكانه بدقة، على بعد بضعة سنتيمترات من الرصيف.

تقول المرأة الشابة وهى تجذب الدراعة:

- سننطلق مرة أخرى.

انطلقت من جديد. ما كان يبدو لى شديد التعقيد بالأمس أصبح اليوم لعبة أطفال. كيف استطعت أن أكون رعناء لهذه الدرجة؟ وقت. كان يلزمنى فقط وقت أكثر قليلاً من الآخرين لتعلم هذه اللغة الجديدة. أتخيلنى وأنا أعلن الخبر السعيد لابنة عمتى أو أتصورنى ذاهبة لإحضارها من المحطة بالسيارة وكأن ذلك طبيعى للغاية. وهو بالفعل طبيعى، أليس كذلك؟. ليس هناك أكثر من المألوف، الحصول على الرخصة، الحصول عليها واستخدامها، خاصة عندما نكون من سكان الريف ويكون لدينا طفلان.

يجب الانعطاف يمينًا ثم يمينًا آخر وسينتهى الاختبار، اكتمال الدائرة ، نهاية دورة، الانتقال إلى تحد تال. نظرة

خاطفة باستهانة و إنارة الغماز . أخذت الممتحنة تسعل سعالاً خفيفاً فوضعت قبضة يدها بشكل دائرى أمام فمها وكأنها تبصق حبة. عند العودة إلى جراج الوكالة الوطنية للتوظيف (ANPE) التفتت نحوى وأضاء وجهها بابتسامة شاحبة. أجدها جميلة. أصدرت حكمها وهى تنظر إلىَّ مباشرة فى عينَى: سرعة غير كافية على الطريق السريع، وضع سيىء على الطريق الأحادى الاتجاه وبصورة عامة انعدام روح المبادرة.

ظللت معلقة بصوتها. إلى الخلف، يجب الرجوع إلى الخلف والبدء من جديد، أخذ المبادرات، تجاوز الآخرين وتجاوز النفس. جلست فى السيارة وأنا مرتابة من هذا الوجه، وجه بلا ظل، وجه قد جعلته ناعماً بودرة أساس حياة منتظمة ذات تغذية معتدلة. نعم، سأنظر بعين الريبة إلى رقبتها المنتصبة، المستقيمة أكثر من اللازم والتى تبدو كأنها موضوعة بالمقلوب، بدلاً من أن أنكب على شاماتها، لا، فشاماتها لا تستحق سطرًا واحدًا. سألحظ بشرة جفنيها الرفيعة، وهذه الهشاشة ستذكرنى بضرورة أن أظل على حذر مهما حدث، سأرى كل شىء، نعم، كل شىء السيارات، المشاة، اللوحات، لن أتخلى عن يقظتى. سأرى شرايينها فى شفافية، هذا الذى يخرج من جانب شفتها، وذلك الذى على الصدغ الذى يرفرف لعله يخرج من جسدها الذى لا يهواه. أما عن شريانى رسغيها، فهما مخبئان بأكمام الدراعة ولكنى سأتنبأ بهما فلا لن أغفلهما والأمر سيكون فى صالحى. إنها كلمة لم نعد نستخدمها الدراعة. إلا أنها بالفعل ما ارتديته الممتحنة فوق الكورساج، إلا إذا كان صديرى، نعم ربما يكون

صـديرى من الصـوف. ولكن مـا الفـرق الدقـيق بين الصديرى والدراعة؟ هل تعرف أنت الفرق؟ هل يهمك مثل هذا النوع من الأشـيـاء؟ لا أزال غـارقـة فى أحـلامـى وتخيلاتى، أشعر فجأة بألم شديد فى رأسى، ألم يجبرنى على غلق عينى وعندما أفتحهما من جديد أجد الجميع هنا، بلا أدنى حركة. التفت الممتحنة حول نفسها، حول ثقبى أذنيها، كأنهما يستعدان لابتلاعها، ابتلاع الممتحنة التى لا تحب الثنيات. وإذا بالسـيدة الشـابة التى كـان يشوبها الغموض قليلاً، تتلاشى فجأة تاركة المكان إلى جلد سميك، جلد ذو شعيرات صلبة جدًا تتعلق بها قطعة صغيرة من الصوف، كرة صغيرة متوافقة مع وشاحها. يجلس مدرب مدرسة تعليم القيادة على الأريكة الخلفية وينحنى نحو السيدة الشابة لاسترداد ورقة ما. تبدو يده تحت عينى وكأنها مموجة، يده أسفل أنفى، رائحة يده، هذه الحموضة، يا للرائحة الكريهة التى يمكن أن تفوح من اليد. أما أنا فأجلس مثل البلهاء، تترقرق فى حدقتى دموع تتجاوزها، عدسات حمقاء من المياه تنفصل وتسيل الآن على خدى، ولكنها قطرات لم تثر شفقة أحد. يجب التحلى بالشجاعة وعدم الاستسلام. تحسس الممتحنة من جديد على سروالها، ربما ستمنحنى فرصة ثانية، ملحق، ولكن لا شىء يحدث، لا شىء سوى عقرب الدقائق وهو يتقدم بجرأة على تابلوه السيارة، يجب أن أرضخ لحكم الواقع، لن يكون هناك فرصة أخرى: لقد أخفقت للمرة الرابعة فى الحصول على رخصة القيادة. قال المدرب وهو يمسك لى باب السائق:

- أنا آسف حقًا. كان يجب عليك تجاوزها، أقصد الشاحنة التى كانت على الطريق السريع. كان أمامك الوقت الكافى.

الوقت؟ نعم بلا شك، ولكن كل شىء كان على ما يرام. الشاحنة كانت تتقدم وأنا أتقدم. أتذكر بالضبط هذه اللحظة، لحظة سلمية لا أحرص خلالها إلا على شىء واحد: التزام مسافة آمنة. كان بين مؤخرة الشاحنة ومقدمة سيارتى مسافة غير قابلة للضغط، كان بإمكانى رؤيتها وكدت أن ألمسها. أحببت الشعور بثقل الهواء، هذا الثقل الذى كان ثمرة تعلم طويل. كرة غير مرئية تفصلنا، ليست كرة مسلسل "السجين"، التى كانت تصفع الوجه ولا الكرة التى تستنشقها لتنام قبل عملية اللوز، ولكن فقاعة حامية قطرها عبارة عن الخطين الأبيضين المرسومين على الطريق. وسادة هوائية خارجية نوعاً ما غير مرئية للآخرين ولكنها قيمة لكلانا، لسائق الشاحنة ولى أنا وقد ربطت بيننا صدفة مسارنا المتبادل. أحببت أن يتم تخليد هذه اللحظة، لأن كل شىء كان يبدو بسيطًا، معلقًا فى وقت مفرح ولكن الشاحنة اتجهت نحو وسط البلد، ووجدت نفسى وحيدة على الجانب الأيمن وهنا فقط زدت السرعة. حكت الممتحنة لسانها فى سقف حلقها فأصدر صوتاً قبل أن تقول: أهو. هل سمعتى هذا التعليق الصغير: أهو أو هو ده المطلوب، أياً كان كلمة صغيرة مطمئنة بالتأكيد فى حين أنها اتخذت بالفعل قراراً بتأجيلى من وراء هذه البشرة الباهتة التى تميز سكان المدن.

حاول مدرب المدرسة تعليم القيادة أن يجد الصيغة التى تعطينى أملاً ولكنه ما إن قال: المرة القادمة. نظرت

إلينا الممتحنة بعين منهكة، فلا يزال أمامها عمل كثير. كان هناك متقدمون آخرون ينتظرون دورهم، العديد من الشباب، و من هم أصغر سناً وقفوا بعيدًا قليلاً، بطاقات هويتهم فى أيديهم، لا يجرءون على الاقتراب. قال أخيرًا المدرب وهو يأخذ بضع خطوات نحوى:

-يجب عليك استشارة أخصائى إبر صينية أو شىء من هذا القبيل.

أو شىء من هذا القبيل؟ نعم بلا شك، شىء من هذا القبيل. حك المدرب نعل حذائه المطاطى فى طرف الرصيف وكأنه يريد التخلص من التوتر المتراكم خلال الاختبار. كان الحذاء المصنع من جلد الغزال البيج، يلمع قليلاً عند سنام الإصبع الكبير.

على جهاز الرد الآلى، ترك لى فرانك رسالة، يريد فقط أن يعرف إذا كنت "حصلت عليها". لا أجرؤ على طلبه. لا أشعر بخيبة الأمل بل بالجرح، بالإهانة فى كبريائى. إنه شعور غير مشرف يصعب مشاركته مع أحد. عند عودتهما من المدرسة، واسانى الصبيان "مش مشكلة يا ماما"، دون أن يعرفا نطقا بنفس كلمات الممتحنة والمدرب " المرة الجاية". أتساءل إن كانا بالفعل يصدقان ذلك. يجب على إليو استذكار درس الأفعال المنتهية بـeindre, aindre, oindre, soudre والتى تأخذ نفس تصريف أفعال المجموعة الثالثة، وعلى مارلان حفظ قصيدة رينيه جى كادو التى تتناول التفاح الطازج. كما يجب التوقيع على كراس المراسلة بين المدرسة والمنزل. تشير المعلمة إلى خبر سيئ: عودة حشرات الشعر. برجاء اتباع التعليمات المنصوص عليها لاحقًا.

أفكر فى مشابك شعر الممتحنة وأتساءل إن كانت عانت آنفًا من حشرات الشعر، إن كانت التقطت بعضاً منها من مسند الرأس الخاص بمقعد السيارة.

بواسطة صديق لى يعمل فى التليفزيون، وجدت الشخص الذى تم إجراء الحوار التليفزيونى معه عند قبر والدى. هل تذكر؟ الرجل الرمادى الشعر، هذا الكاتب الذى رأى روجيه نيميه يوم الحادثة. ولكى أكون دقيقة لم أجده هو شخصيًا، ولكنى حصلت على موافقة لاستعارة نسخة من شهادته. ظل الشريط بضعة أيام على جهاز الفيديو بين شريطى بيارو المجنون وسفهاء الفضاء. مساء أمس، شاهدته وعلمت منه عدة أشياء كنت أعرفها بالفعل وأخرى أكثر غموضًا لم أكن على علم بها. فعلى سبيل المثال، علمت أن والدى يوم وفاته تناول غذاءه فى لابولونجورى بالقرب من شارع ران بعد احتسائه شرابًا فى بار بون رويال. كان أنتوان بلوندان موجودًا ولكن غلبه النوم فأرسله والدى ليأخذ حمامًا عند سيمون جاليمار. كان لويس مال موجودًا هو الآخر، وكان يتحدث عن مشروع تحويل نار خفية إلى فيلم. أما الغذاء فجمع ثلاثة أشخاص فقط: والدى، الجميلة سانسياريه وأحد أصدقائها- الذى سيصبح فيما بعد شاهد سان بريوك. أشار الشاهد إلى أنه وقع أسير روجيه نيميه. فلقد جذبه روحه وذكاؤه. عقب الغذاء، أصر والدى على إهدائه زوجًا من حمالات السراويل. هل تتخيل نفسك وأنت تدخل إلى محل ملابس رجالى لتشترى لأحد تكاد تعرفه زوجًا من حمالات السراويل؟ أعجبتنى هذه الحركة، والتالية أيضاً: على عتبة شيه لورانزو، المحل المشار إليه، أمسك بنفس

الحـمـالات مـعطفـه الواقى من المطر على رأس السـيـدة الشابة وكأنه غطاء رأس. البقية؟ فى الساعة الرابعة تفرق ثلاثتـهم أمـام كنيـسـة سـان تومـاس داكـان. هـمـست سـانسـيـاريه فى أذن صـديقـهـا: سـأمـر عليك يوم الاثنين وسأروى لك كل شىء.

ابتعد الصديق والفضول يملؤه. كان يرغب فى أن يأتى سـريعـاً يوم الاثنين، فلم يكن بإمكانه مـعـرفـة مـا تريد أن تقـصـه عليـه. أمسك والابتسـامـة تعلو وجـهـه الحـمـالات الجديدة بينما انصـرف والدى و سـانسـيـاريه تجـاه شـارع سـان جـارمـان. كـان عليـهـمـا تسليم صـور فى مقـر بارى-مـاتش. فى إحـدى هذه الصـور، تظهـر السـيـدة الشـابة وعيناها مـغـمـضـتان، بينمـا ينسدل شـعـرها على وجـهـها. سـيتم نشـر هذه الصـورة فى العـدد الذى سـتـعلن فـيـه المأساة، وسيعتقد الجميع أنها التقطت لها عقب وفاتها، ولكن سـانسـيـاريه آنذاك كـانت لا تزال على قـيـد الحـيـاة. لقد وجد صديقها صعوبة فى تحمل هذا التلاعب، فأخذ صـوته يرتجف وهو يقص ذلك. أفـهم مـا يشـعـر به، فـمن الاعترافات ما ترغبك فى الضرب.

خُصص الجـزء الثـانى من الريبـورتاج لسـانسـيـاريه. يشير إليها الرجل بطريقة مقلقة. قـال على سبيل المثال: "كنا نخاف عليها حيث اعتادت على القيادة بسرعة جنونية بل وأوشكت مـرة سـابقـة أن تموت فى غـابة لابولـون على مقود سيارتها الخاصة. تهورها كان على قدر سعادتها". ألديه أمثلة أخرى؟" فى مساء يوم من الأيام، عند خروجها من السينما، خلعت حذاءها وصعدت على كوبرى وجـرت حافية القدمين حتى الضفة الآخرى. كانت السماء تمطر

والحجارة زالقة". احمر وجهى عند سماعى هذه الكلمات. كأن الرجل استطاع قراءة الخطاب الذى أعلن فيه والدى مولدى أو تأتى له رؤيتى وأنا أقفز من الكوبرى. استأنف قائلاً: "كانت سانسياريه بحاجة إلى مواجهة الموت فى كل لحظة، إلا أنها لم تحمل بداخلها الحزن الذى كان كامناً فى روجيه نيميه". ماذا تقصد بذلك؟ "كان هناك حزن خفى يقبع بداخله، حزن ضئيل جدًا، حزن كان يطفو فى بعض الآونة". ذكريات أخرى؟ بينما كان روجيه نيميه يتحدث فى الهاتف ليعرف أخبارًا عن أنتوان بلوندان، أفضت إليه السيدة الشابة بتنبؤ عالم فلك صديق لأبيليو، استشارته قبل بضعة أيام. لقد قال لها شيئاً غريباً، قال لها إنها متجهة إلى انفجار شخصها.

انفجار؟ لم تعلق وغيرت الموضوع. فسانسياريه والتى عرفت بحبها للثرثرة لم تكن تحب الحديث عن نفسها. خلال سنتين، لم تقم قط بالبوح بأى سر. جاءت يوماً إلى مكتبه، فى الثالث عشر من يوليو (حتمًا) لتسليم مخطوطها الأول. كانت ترتدى تاييراً أبيض اللون. توطدت روابط الصداقة بينهما. كانت تمر بلا ميعاد وتحضر له هدايا بسيطة. اعتادت على الكتابة له. لا يعرف شيئاً عن طفولتها ولا عن ماضيها. من الأخبار التى يتداولها الناس عنها أنها من طبقة متوسطة، وأنها منذ زيعان شبابها قطعت صلتها بعائلتها حتى أن والدتها عرفت خبر وفاتها من الصحف. كما يقال إن الرجال كانوا ينتحرون من أجلها. هل كانت عارضة أزياء؟ إنه يتذكر صورة للسيدة الشابة وهى تنزل من الطائرة ممسكة بسلسة ثعلب. كانت تميل إلى التصنع والتمثيل فى الحياة كما فى الصور. أصر

على أنها كانت امرأة مقنعة للغاية، امرأة لا يقف أمامها شىء. (ولكن ماذا كان يقصد؟) لم أعرف قط رجلاً قاومها أو رفض لها طلباتها وإن عظمت". وماذا لو كانت طلبت من روجيه نيميه قيادة الأستون مارتان...

أخرج الرجل منديلاً من جيبه ومرره على فمه وكأنه بذلك يمحو الكلمات التى نطقها للتو. هل ندم على إثارة هذا الموضوع أمام الكاميرات؟ استأنف كلامه عن سانسياريه. كان لديها طفل، نعم، لقد رزقت به فى سن مبكرة. ماذا أصبح، هذا الصبى الظريف؟ لا يعرف شيئاً عنه. كانت الوالدة والابن تربطهما علاقة غريبة حيث كانت تعامله لرجل بالغ. كم كان عمره؟ ست أو سبع سنوات. قص الرجل أيضًا أن فى مساء أحد الأيام، ذهب لاصطحاب سانسياريه من منزلها. كان من المفترض أن يتناولا العشاء فى الخارج، كانت تعيش فى شقة بشارع ليل فى الدور الأخير، أسفل السطح مباشرة. شقة قامت بترتيبها بطريقة بديعة. "عندما وصلت، كانت تضع طقم مائدة لشخص واحد، طقم معتنى به، بمفرش وفوط متوافقة معه. أغلقت الستائر وأنارت الشمع ووضعت موسيقى موزار. خرجنا تاركين ابنها هناك مثل الأمير الصغير جالساً أمام طبقه. هل ستتركينه وحيداً؟ بالتأكيد، لا تقلق، إنه يعرف كيف يتدبر أمره".

وحيدًا، نعم، وحيدًا بلا مرافق. هذه الجملة تجعل عينَى تسكب العبرات. كنت أرغب فى إيجاد الصبى الظريف وكأن وجودى بجانبه، بعد أربعين سنة، قادر على تدارك خطأ ما. تم ذكر اسمه الأول واسم عائلته فى

الحوار التليفزيونى. بحثت عن أرقامه على الإنترنت. لم يظهر فى الصفحات البيضاء للدليل، ولكن كانت هناك إشارة إلى عمله على موقع إحدى المكتبات. لقد كتب وأخرج ولحن موسيقى تسجيلات تبدو عديدة لمجموعة اسمها "القراءة بالأذنين" وهى مجموعة تعمل على اقتباس روائع أدب الأطفال الكلاسيكة بدء من اللحية الزرقاء وحتى روبنسون كروزويه. القراءة بالأذنين، الكتابة والعينان مغمضتان، كنا نشترك فى هذا، الاهتمام بالكلمات المسموعة. كان لديه أيضًا شركة طبع وإنتاج موسيقى مقرها فى باريس، فى التقسيم العاشر. دونت رقم التليفون والعنوان فى مفكرتى. آخر ما قدمه محرك البحث هو موقع شجرة العائلة التى صممها أحد الأقارب. اكتشفت أن ابن سانسياريه رُزق بثلاثة أبناء، ثلاثة أولاد، ضغطت على الأسماء التى وضع تحتها خط. توفى ابنه البكر فى عام ولادته، شعرت بغصة فى حلقى عند قراءة ذلك. الثانى يحمل اسم جدى لوالدى والثالث الذى ولد بعد ذلك بأربعة عشر شهرًا يحمل اسم شقيقى.

يا للصدفة البحتة.

لا أستطيع أن أفسر لماذا وأنا أقرأ هذه الأسماء، شعرت أن قصتى أدركت نهايتها. لم أقص بضعة أشياء رغم أهميتها فى ملفاتى، فلم أتعرض مثلاً لحريق الدرجة الثالثة الذى أصاب والدى لدى تعرضه للشمس عندما كان يتعافى عند عائلة موران فى فيفاى، ولا لمسابقات السكر ولا مباريات الركبى ولا بائعة بريزونيك الصغيرة. ولكن أهناك ضرورة من ذكرها؟ إنها ذكريات مهجورة، بلا قيمة

تذكر، ملاحظات تم تدوينها بدقة كبيرة حتى فقدت جانبها السرى. أفضل الوقوف هنا.

فى صباح أحد الأيام، طلبت رقمه، وددت تحديد ميعاد معه، مقابلته وجعله على اتصال بهذا الرجل الرقيق الذى كان على صلة جيدة بوالدته. رن جرس الهاتف عدة مرات فى الفراغ. حاولت تخيل شقته: باب يصفق، أقدام على الممر ولكن ماذا لو أجاب على أحد ولديه؟ أو امرأته؟ كيف سأقدم نفسى؟ صباح الخير، أنا مارى نيميه، ابنة الكاتب الذى...

الكاتب الذى ماذا؟ كيف سأصيغ ذلك؟

أغلقت بسرعة الخط، الليلة التالية كانت مضطربة. كيف أصبح اليوم ابن سانسياريه؟ ماذا فعل فى حياته؟ هل هو مستعد لسماع هذا النوع من الشهادات؟ هذه الشهادات الحنونة والعنيفة فى آن واحد عن والدته؟ وأنا، ماذا أنتظر منه؟ لما هذا الفضول وهذا الانفعال وأنا أطلب رقم هاتفه؟ نمت فى ساعة متأخرة بعد أن عقدت العزم على صرف النظر عن فكرة الاتصال به هاتفيًا. فى الصباح، شاهدت حلمًا مكدرًا. كنت أجذب صبى من الرمال المتحركة وهذا الصبى لم يكن إلا ابن ويتولد جومبرووبكز. كان يشبه والدى فى طفولته. مددت يدى تجاه فتشبث برسغى. رحت أكرر للصغير فى الحلم: تنفس يا حبيبى، تنفس. حملته بين ذراعى حتى منزل الكاتب. لم يكن قادراً على التحرك من فرط المجهود الذى بذله. إلا أنه كان يسمعنى. كنت واثقة من ذلك. فكررت له: تنفس يا حبيبى، تنفس. كان ظهره ينحنى مثل سمك الموسى الطازج

الذى نضعه فى الطاسة فيهيج وكأنه يسعى للخلاص من الزيت، الخلاص من إلحاح صوتى، من إصرار الحياة. لم يكن هناك تزييف خارجى، فالدماء كانت محبوسة فى الداخل، فى جيب، مكبوتة فى مكان ضيق. كان يجب هز الصبى حتى ينفذ الهواء إليه وحتى يتلون غلاف الورق المكرمش بالحياة ولكنى لم أقو على ذلك. خرجت زوجة جومبرروويكز على المدخل، كانت على درجة عالية من الجمال. فهمت وقتها فقط أننا داخل ديكور وكأننا فى فيلم أو مسرحية. صور قانون المرور أحاطت بنا على شكل دائرة غريبة. كانت معروضة على الأشجار، على لوحات الإعلانات، على الأرصفة، وعلى نوافذ المنزل. فكرت عند استيقاظى من النوم فى الصور المضاءة التى نراها فى مدرسة تعليم القيادة. فى حال وقوع حادثة، الأهم هو تفادى تفاقمها. نعم، هذا هو ما تعلمته: يجب إعطاء شراب للمصابين، عدم تحريكهم، تغطيتهم، والتهدئة من روعهم بألفاظ مطمئنة. نرى فى الصورة التى تظهر فى الكتاب رجلاً جاء لإغاثة المصاب فوضع على كتفيه غطاء وأمال وجهه تجاه الآخر فى رأفة. فى حال واجهت المصاب صعوبات فى التنفس، يجب على المسعف اللجوء إلى التنفس الصناعى إذا كان يتقنه. والرجل البادى فى الصورة يتقنه على نحو باهر بمعنى أنه يمتلكه دون تفكير. ففى الوقت الذى قد يتردد أى هاو فى تقبيل شخص غريب عنه، نجد أن المسعف يبذل أقصى جهده فى هذه الحركة المناسبة. فهو لا يرى اقتراب شفتى شخصين ولكن اقتراب أربع رئات، مائتا متر مكعب من الحويصلات التى سيدور بداخلها، بفضل خبرته، نفس الغذاء المتطاير. إنه

يعلم أن فى الأربع وعشرين ساعة، يمر بداخل كل منا أكثر من عشرة آلاف لتر هواء.

كم سنة مضت على وفاة والدى؟ كم عدد مليارات لترات الهواء التى كان من الممكن أن تمر بداخله إذا لم يأخذ فى هذا المساء الأستون مارتان؟ ومن بين هذه المليارات من اللترات، كم من الملايين أو ربما مئات الملايين كنا نستطيع اقتسامها بسهولة إذا جلسنا فقط ولو من آن إلى آخر فى نفس الغرفة، فى نفس الصالة أو على نفس السلم؟ وعودة إلى الحلم، اقتربت زوجة جومبرووويكز تجاهى وذراعاها ممددان. استيقظت وأنا يساورنى الشعور بأن الطفل كان يتنفس. لقد تم إنقاذه. لقد أنقذناه. كنت فى حالة مزاجية جيدة طوال النهار وفكرة إيجاد ابن سانسياريه بدت لى من جديد فجأة وكأنها بديهية. كيف ترددتُ فى ذلك؟ نعم لقد أخفقت فى الحصول على رخصتى ولكنى لن أضيع هذه الفرصة. هذا الميعاد، بعد عشرين عامًا من الأول.

وددت لو كتبت جملة بسيطة للغاية مثل: صباح أمس، ذهبت إلى باريس، إلى الحى العاشر، شربنا قهوة وتناولنا فطائر. كان ابن سانسياريه، كيف أقول ذلك، فى غاية اللطف معى. أعتقد أننا سنتقابل مرة أخرى.

ولكنى تلقيت الخبر عندما اتصلت هاتفيًا. رد على صوت نسائى. لقد توفى ابن سانسياريه. ظللت مثقلة أمام مكتبى.

الشعور بذهابى خارج نطاق قوتى. الشعور بخريف ترفض الأوراق فيه أن تسقط وتتعلق بيأس فى أفرع

الأشـجـار. الجـو بارد فى المنزل. حـضـر العـديد من الأشخاص مراسم دفنه، العديد من الأصدقاء.

جلب فرانك الشجرة إلى المنزل، زينها الأطفال، صنعوا حمارًا جديدًا من الطين (فالقديم فقد اثنان من قوائمه)، قاموا بتبييض ألواح الزجاج بالسبراى الرشاش وعلقوا فروع نبتة البهشية وكرة الهدال. وفقًا لنتيجة عيد الميلاد، ستة أيام تفصلنا عن العيد. أخرج فرانك مسدس الصمغ اللاصق لترميم الحظيرة التى عانت هى الأخرى من فتح الصناديق. عندما بحث إليو عن حذائه الطويل لوضعه أسفل شجرة عيد الميلاد، تساءل إن كان يجب وضع فردة واحدة أو الزوج، فعادت القصة إلى ذهن فرانك.

قال وهو يلتف نحوى موجهاً المسدس فى الهواء لتفادى أن يسيل الصمغ على مائدة المطبخ: هذا يذكرنى بحذاء والدك.

حذاء والدى؟ لم أفهم عما يتحدث.

استغرب من عدم علمى بهذه الواقعة المؤثرة من الملحمة العائلية. لقد قصتها عليه والدتى بينما كنت أقرأ للصبية فى المساء. بالنسبة له كان أمرًا بديهيًا أن أكون على علم به.

القصة؟ فى إحدى ليالى ١٩٦٢، عاد فريديريك دار وزوجته من باريس إلى مورو حيث كانا يعيشان آنذاك. كان الطريق السريع الغربى مهجورًا. لاحظوا عند حافة الطريق كتلة داكنة لسيارة تعرضت لحادث. اعتقادًا منهم أن الحادثة وقعت لتوها، توقفا وهرعا إلى إغاثة العابرين

ولكن مـا من أحـد كان بداخلها. فـقط كـانت هناك فـردة حـذاء مـبـعـثـرة على المنحـدر، فـردة يتـيـمـة. قـام الكاتب وزوجته بـوضـعـهـا على حـطام السيـارة وكـأن هـذه الحـركـة بمقـدورها التـخـفـيف من المنظر المخـيف، كـانت زوجـتـه تتحدث عن هذا الحذاء وكأنها تتحدث عن حيوان صغير، عن شيء رقيق ودافئ. إنهـا لا تزال تراها، لا تزال تشعـر بهـا بين يديهـا حتى بعـد مـرور أربعـين سنة. لم تقم قط برواية هذه الواقعة على الملأ لأنها ببساطة لا تُعتبر واقعة ولكنهـا لحظة مهمة فى حياتهم. فى اليوم التالى ليس إلا، عند قراءة العناوين الكبيرة للصحف، استوضحا الحقيقة: لقد أمسكا بين أيديهم حذاء روجيه نيميه.

تم إعادة لصق الحظيرة وعاد المسيح إلى بطن والدته. وضـعـت العـذراء طرحـة زرقـاء. قـام الأطفـال بإعـداد رداء متحرك لها حتى يستطيع الوليد الخروج فى منتصف ليلة الرابع والعـشـرين وإيجـاد مكانه فى المهـد. وقف يوسف بعيدًا مسـتنداً على عصـاه وقـد بدا عليـه الإنهـاك. أبـعـد قليـلاً سـار التـابعـون بجـانب إبلهم. تم تعليق زينة مضـيـئـة للأفـرع القصيرة لإضفاء جو خرافى للمنظر. فى النهاية، ترك إليـو زوج حذائه أسـفل شـجـرة عيـد الميـلاد ومـارلان الحـذاء ذاته الذى وضـعـه فى العـام السـابق. كـان الجـو مـعـتـدلاً وهو أمـر غـريب بالنسـبـة لـهذا الوقت من السنة، شهـر ديسمبـر، فكرت كثيرًا فى الحذاء، أشعـر أنى أمسكه بين يدى وكـأنى أنا التى قمت بـالتـقـاطه من على حـافـة الطريق. حـركـة وضـعـه فى السـيـارة لمستنى بشـدة. انتهت لعبـة التجـمـيع "البـازل" أو على الأقل إطارها، حـافتهـا: فى

الداخل، كان يوجد فراغ كبير اندرجت فيه مجموعات من القطع جاءت من هنا وهناك ، جزر صغيرة مشتتة تربط بينها فى الوقت الحالى خطوط معرجة مثلما تربط بينها طرق جوفتها الكلمات. أما عن الكلمات التى فرضت نفسها بفضول، تلك التى تم تداولها بالقدر الكافى حتى تركت آثارها، فيبدو أنها نُظمت حول القطعة الناقصة، القطعة المعثور عليها دون وجود خطة أو إستراتيجية كتابة أدت إلى هذه النتيجة. ألم يفقد والدنا فردة حذائه فى الحادث؟ يمكنه العودة هادئًا فمارتان توقع كل شىء. فى أسفل الصورة، مثل الزخارف، تتلألأ، فى إضاءة قوية، أجمل قطع مجموعته. سيجد حتمًا مقاسه بين الماركات المختلفة، الويستون، الشارشز، الفاينزبيرى والكروكيت أند جونز التى قام ابنه بوضعها فى قالب، بتلميعها وبتسجيلها والتى تنتظر وصول الرجل المبعوث من العناية الآلهية شأنها شأن الطائرات الصغيرة الباحثة عن ركاب. بأعلى، تظهر بداخل بركة من القطع الزرقاء عروس بحور أندرسن التى قايدت بصوتها مقابل الحصول على ساقين مؤلمتين لجذب الأمير الذى أنقذته من الغرق. فى الشمال، يترنح هوج على مقعده بين الصبى الذى تم إنقاذه من الرمال المتحركة وملاك يسير حافى القدمين. أسفل قليلاً، على المكتبة الأبوية بدلاً من المسدسات، جلس الخف ذو الخيوط المتدلية. أفكر من جديد فى الحبوب خلف كعبى التى منعتنى من جمع التبرعات فى الكنيسة، فى صفعة جدتى وفى الخمسة فرانكات التى دسستها فى صندوق صدقات سان أوجوستان للتكفير عن ذنبى. أفكر فى روماتيزم المفاصل، فى نقطة ضعف قافز الزانة، فى

النعل الذى يصدر صريرًا على دواسة الدبرياج، فى آثار أقدام القطط على مقابر سان بريوك. أفكر فى ساقى المكسورة، أعتقد أنى لم أذكرها، ولكنها كانت على كل حال مؤامرة ضدى: كان عمرى عامًا واحدًا وكسرت ساقى. يبدو أن الفتاة الشابة التى كانت ترعانا وقعت فى السلم، كانت تحملنى بين يديها. عند عودة والدتى من العمل، لاحظت أن عينى مليئة بالدموع. لم أكن أصدر صوتاً. كنت هنا ممددة على السرير فى صمت، قادنا والدى إلى المستشفى. ماذا حدث بالفعل؟ لا شىء بالتأكيد سوى انزلاق الفتاة الشابة على الدرج الزالج، ولكن هذا الكسر المبكر بدا لى دومًا كعلامة شىء أجهله، شىء قد لا يكون له أية علاقة بوقوع أو بسلم وأن الجميع يريد نسيانه. أخيرًا ومن زاوية جديدة، فكرت فى هذا السؤال الذى طالما حاصرنى والذى لم أستطع قط طرحه بصوت عال: كيف يسير الوالد؟ وهنا دبت الحياة فى القطع وتحرك طيف فى وسط الصورة. كان هنا، هنا الأب المعقد، وكان يسير مثل الرجال، على قدميه. التفتَ واستطعت التعرف عليه كما يتعرف الوالد على أبنائه. التعرف على مشيته ولكن أيضًا فى نفس حركة الحنان التعرف على وجهه، على ملامحه، على تعبيراته. جبهته العالية، عيناه الخضراوان، المنحنى التام لحاجبيه. أستطيع رؤيتهم، تخيلهم ولأول مرة منذ فترة طويلة، شعرت بالارتياح وكأن العالم قرر أخيرًا الاستراحة.

سلسلة الجوائز

الكتاب:

تقول المؤلفة عن كتابها: - «كنت فى الخامسة من عمرى عندما لقى أبى مصرعه مساء يوم الجمعة بعد اصطدام سيارته بأعمدة الكوبرى.

لم يتبق لى من أبى سوى ذكريات قليلة، وبعض الكنوز تتمثل فى ساعة وقلم وريشة مائلة وكارت بريدى، كتب عليه بحروف بارزة يسألنى: ماذا تقول ملكة الصمت؟

وكنت فى ذلك الوقت مفتونة التأثر بمهارات الأبوة المختلفة».

٧ جنيهات
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب